# الفصل الأوَّل

## ابن جنِّي ومُكَوِّنات شخصيَّته النقديَّة

المبحث الأول: ابن جني: حياته ونشأته.

المبحث الثاني: مكوِّنات شخصيَّته النقديَّة.

obeikandl.com

obeikandl.com

# المبحث الأول: ابن جنِّي: حياته ونشأته*

## * مولده:

في أوائل القرن الرابع الهجريّ، ذلك القرن الأغرُّ المُحَجَّل الذي تسنَّم فيه العلم والأدب ذُرًا رفيعة، والذي حظي بكوكبة من فطاحل العلماء وفحول الشعراء ومصاقع الخطباء، فمضى أريج علمهم يسري في الآفاق، يعطِّر العالم الإسلاميّ، ويجتاح ظُلَم الجهل الرائن هنا وهناك، فإذا العالم الإسلاميّ شُعلة من الحركة العلمية الدؤوب لها نورها الوضَّاح وأريجها الفوَّاح.

وفى مدينة المَوْصل تلك المدينة المباركة موقعًا وأهلًا وعلمًا، والتي وصفها المقدسيُّ قائلاً: «بلد جليل، حسن البناء، طيِّب الهواء، صحيح الماء، كثير الملوك والمشايخ، لا يخلو من إسنادٍ عالٍ وفقيه مذكور»،[1] ولا غرو فلا زالت أصداء مزامير أبي تمّام تُجلجل في أنحائها منذ قرنٍ

---

* رجعت في ترجمة ابن جنِّي إلى المصادر الآتية ثم صُغْتها بأسلوبي: يتيمة الدهر: 1/ 89، شذرات الذهب: 3/ 140، وفيات الأعيان: 3/ 246، نزهة الألباء؛ ص244، تاريخ بغداد: 11/ 311، معجم الأدباء: 3/ 461، دمية القصر: 3/ 1481، الإكمال؛ لابن ماكولا: 2/ 585، اللباب في تهذيب الأنساب: 1/ 299، الكامل في التاريخ: 9/ 179، المنتظم؛ لابن الجوزي: 15/ 33، إنباه الرواة: 2/ 335، الفهرست؛ ص128، سير أعلام النبلاء: 17/ 17، تاريخ الإسلام (وفيات عام 392هـ)؛ ص270، دول الإسلام: 1/ 236، المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبى الفداء): 2/ 136، إشارة التعيين؛ ص200، طبقات النحاة واللغويين؛ لابن قاضي شهبة (مخطوط): 2/ 123، العبر في خبر مَنْ غبر: 1/ 183، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة؛ ص141، البداية والنهاية: 11/ 354، الشعور بالعور؛ لصلاح الدين الصفدي (مخطوط)، ص131-137، بغية الوعاة: 2/ 132، المزهر: 2/ 467، النجوم الزاهرة: 4/ 205، حاشية البغدادي على شرح بانت سعاد: 2/ 199، الأعلام: 4/ 364، هدية العارفين: 5/ 652، دائرة معارف القرن العشرين: 3/ 189، دائرة المعارف الإسلامية :1/ 122، دائرة المعارف؛ للبستاني: 1/ 436، تاريخ الأدب العربي؛ كارل بروكلمان: 2/ 244، تاريخ آداب اللغة العربية؛ جرجي زيدان: 2/ 303.

(1) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم؛ للمقدسي، ص138.

obeikandl.com

من الزمان تقريبًا؛ حيث عزف الطائيُّ أروع قصائده على قيثار الشاعرية الشابَّة الطامحة لدى القائد الأروع محمد بن حُمَيْد الطوسيّ.

ومن صُلْب أب روميٍّ شتيم الوجه وحشيِّ الصورة لا عِلْم عنده ولا فهم؛[1] فقد كان جنديًّا وقع في أسر المسلمين وأصبح مملوكًا لسليمان بن فهد الأزدي الموصلي - أراد الله أن يحبو العربية بأبي الفتح الذي فتح الله على يديه دولاً للعلم، وأثّل بأنامله أمجادًا للعربية ظل فريدها يزيِّن جيد العربية حِقَبًا طوالاً حتى يوم الناس هذا.

وهنا يتوقف سير الرحلة مليًّا أمام مشكلة عضال، هي تاريخ ميلاد ابن جنِّي، تلك المشكلة التي تباينت فيها الآراء تباينًا حادًّا حتى وجدنا خمسة آراء في القضية؛ هي:

(1) أنَّه وُلِدَ قبل الثلاثين والثلاثمائة دون تحديد، وهى العبارة التي تناقلها جُلَّ المؤرخين القدماء،[2] والذي يُفهم منها أنه وُلِدَ قبل ذلك بعام أو عامين على الأكثر، وإلَّا فإن العام الأول للهجرة، بل إنَّ ميلاد آدم، كان - لا ريب - قبل الثلاثين والثلاثمائة.

(2) أنَّه وُلِدَ عام 322هـ؛ وهو رأي كثير من المُحْدَثين،[3] معتمدين على قول ابن قاضى شُهْبَة: «تُوفِّي في صفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة وهو في السبعين - بتقديم السين»[4]. فإذا طرحنا سبعين من تاريخ الوفاة نتج لنا أنه وُلِدَ عام 322هـ.

(3) أنَّه وُلِدَ سنة 320هـ؛ وهو رأي الأستاذ **PROBSTER** من محرري مادة دائرة المعارف الإسلامية دون أن يستند إلى دليل.[5]

---

(1) فهرست أبى بكر بن خير: 2/ 415.
(2) انظر: وفيات الأعيان: 3/ 246، معجم الأدباء: 3/ 461، إنباه الرواة: 2/ 335 وغيرها.
(3) منهم: محققو المحتسب (المقدمة):1/ 6، والدكتور فاضل صالح السامرائي؛ في أطروحته للماجستير (ابن جنِّي النحوي)، ص37، والدكتور عبد الغفار هلال؛ في أطروحته للدكتوراه (ابن جنِّي اللغوي)، ص20.
(4) طبقات النحاة واللغويين: 2/ 125، 126.
(5) دائرة المعارف الإسلامية: 1/ 122.

(4) أنَّه وُلِدَ سنة 302هـ، وقد تفرَّد بهذا الرأي من القدماء أبو الفداء عماد الدين إسماعيل[1].

(5) أنه وُلِدَ قبل سنة 300هـ؛ وهو رأي كارل بروكلمان،[2] ولم أجد له مستندًا ولا لرأيه نظيرًا، وصاحبه ناقل لا شك، فيقيني أنَّه نقله ممن قال قبل الثلاثين والثلاثمائة وهم أكثر المؤرخين، ثم سقطت كلمة الثلاثين سهوًا فنقلها قبل الثلاثمائة.

ولعلَّ نقطة البدء في حسم القضية هي قصة التقاء ابن جنِّي بأستاذه أبي عليٍّ الفارسيّ، ولهذه القصة روايتان:

**الأولى:** رواية ابن الأنباري ونصُّها: «وأخذ عن أبي عليّ الفارسيّ، وَصَحِبَهُ أربعين سنة، وكان سبب صحبته إيَّاه: أنَّ أبا عليّ الفارسيّ كان قد سافر إلى الموصل فدخل إلى الجامع فوجد أبا الفتح عثمان بن جنِّي يُقْرئ النحو وهو شاب، وكان بين يديه متعلِّم وهو يكلمه في قلب الواو ألفًا (قام وقال)، فاعترض عليه أبو على فوجده مُقَصِّرًا، فقال له أبو على: زبَّبْتَ قبل أن تَحْصرَم، ثم قام أبو عليّ ولم يعرفه ابن جنِّي، وسأل عنه فقيل له: هو أبو عليّ الفارسيّ النحوي، فأخذ في طلبه فوجده ينزل إلى السُّمَيْرِيَّة يقصد بغداد، فنزل معه في الحال، ولزمه وصاحبه من حينئذٍ إلى أن مات أبو عليّ، وخَلَفَه ابن جنِّي»[3].

**الثانية:** وهى رواية ابن خَلِّكان ونصها: «قرأ الأدب على الشيخ أبي عليّ الفارسيّ، وفارقه وقعد للإقراء بالموصل، فاجتاز بها شيخه أبو عليّ، فرآه في حلقته والناس حوله يشتغلون عليه، فقال له: زبَّبْتَ وأنت حِصْرِم، فنزل حلقته، وتبعه، ولازمه، حتى تمهَّر»[4].

---

(1) المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبى الفدا): 2/ 136.
(2) تاريخ الأدب العربي: 2/ 244.
(3) نزهة الألباء في طبقات الأدباء؛ ص245، ومعجم الأدباء (باختلاف يسير): 3/ 466.
(4) وفيات الأعيان؛ لابن خلكان: 3/ 246.

openkanar.com

* وقبل أن نستكنه دلالات هذه القصة المهمّـة نواجه من نفاها جملـة وقام بإنكارها قائلاً: «ويظهر أنَّ هذه القصة مصنوعة، لأنَّ ابن خلكان يرويها على شكلٍ آخر فيقول ... ثم يقول: **فالفرق بين الروايتين يظهر من وجوه ثلاثة:**

**أولاً:** أنَّ الرواية الأولى تذكر أنَّ ابن جنّي ما كان يعرف أبا عليّ لَمَّا وقف عليه في الحلقة، والرواية الثانية تنصُّ على أنَّه كان يعرفه، بل تزعُم أنه كان تلميذه.

**ثانيًا:** يذكر ابن جنّي في كتابه «الخصائص»؛ أنَّ أبا عليّ أنشده بالموصل سنة إحدى وأربعين[1]، ونحن نعرف أنَّ ابن جنّي قد وُلِدَ حول الثلاثين والثلاثمائة، فعلى هذا يكون عمر ابن جنّي في سنة إحدى وأربعين نحوًا من اثنتي عشرة سنة، وما يجوّز عقلٌ أنَّ إنسانًا له هذا العمر يرحل في طلب العلم قبل هذه السن من الموصل إلى بغداد ثم يعود ويحلق حلقة يعلِّم فيها النحو.

**ثالثًا:** جرت عادة المترجمين من المتقدمة أن يختلقوا قصصًا وروايات يعلِّلون بها أسباب انصراف هذا الطالب إلى ذلك العالِم أو الشيخ، فيخترعون لذلك قصصًا ينسجها خيالهم، وأنا أرى أنَّ قصة الزبيب والحصرم من هذا النوع، ابتدعه مترجمو ابن جنّي؛ ليبيِّنوا سبب تعلُّق ابن جنّي بالصَّرْف أولاً، وبشيخه أبي عليٍّ ثانيًا». [2]

**وأقول:** إنَّ هذا الزعم مردودٌ جملةً وتفصيلاً، حيث إنَّ القصة متواترة في جُلِّ كتب التراجم دون أن يُشير أحدٌ إلى أيِّ لونٍ من الشك في صحتها، وحدوث اختلاف في الرواية لا ينفى القصة أصلاً، بل إنَّه عندي ليُثبتها من طريقٍ آخر، وكأنَّ كلَّ مؤرِّخ قد تلقَّفها من طريق فحدث هذا الاختلاف اليسير لتعدُّد جهات السماع، خاصة أنَّها قصة يمكن التصرف فيها وروايتها بالمعنى، وأين هي القصة التي اتفق المؤرخون جميعًا في نقلها؟!

---

(1) الخصائص: 1/ 75.

(2) (أبو الفتح بن جني) – عشر مقالات متسلسلة؛ نشرها الدكتور أسعد طلس في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مجلدات 24، 25، 30، 31، 32، وهـذا النقـل مـن المجلـد 30، ج 3، ص448، 449.

بل إنَّه من المشاهد «أنَّ حوادث تقع في أيامنا وعلى قُرْبٍ منا، ثم تختلف الروايات وتتضارب في نقلها وكيفية وقوعها، فلا نقول إن الحادثة مصنوعة لا أساس لها».[1]

وأمَّا مسألة عمره؛ فنحن ننكر أن يكون ابن اثنتي عشرة سنة في ذلك الوقت كما سيتبين لنا لاحقًا.

وأمَّا أنْ يتهم الدكتور الفاضل المؤرِّخين بالوضع والاختلاق؛ فتلك ورَبِّ البيتِ فِرْيَةٌ ما فيها مِرْيَة، وتهجُّم بغيض على مؤرخينا العظام الذين تحلَّوْا بكثير من الأمانة والضبط، ولو أنَّنا فتحنا هذا الباب الرديء ووجَّهنا تُهَمًا بائرةً لمرويات دون أساس علمي لضاع كل شيء ولم يبق في أيدينا أيُّ خبر يُعتمد عليه، ما دام لكل شادٍ الحق في إنكاره متى راقه ذلك، وأخشى أن تكون عدوى الشك الطاهوي قد حملتها رياح نكباء إلى سوريا فاستعذبها الدكتور طلس، ولاذ بها بعدما أُخمدت نارها، وعاد أنصارها صُفْر الوجوه من الخزي والعار.

* ثم نأتي بعد ذلك إلى الترجيح والموازنة بين الروايتين؛ **فأقول**:

إنَّ حادثة اجتياز أبي عليّ بالموصل قد وقعت عام 337هـ؛ حيث كان مع معز الدولة البويهيّ الذي هاجم آل حمدان بالموصل في تلك السنة، وقد انهزم أمامه ناصر الدولة، وانكشح عنها إلى نَصِيبِين.[2] ومعلوم أنَّ أبا عليّ كان ملازمًا لبنى بُوَيْه يُسايرهم في كل مكان ويؤلِّف لهم كتبه، ويخالطهم فيما دقَّ وجلَّ من أمورهم.[3]

ويؤكِّد هذا أنَّهم ذكروا أنَّ ابن جنِّي لازم أبا عليٍّ أربعين سنة، وقد تُوفِّي عام 377هـ، فكأنَّ حادثة الزبيب والحصرم إنَّما وقعت عام 337هـ لا غير.

فإذا صحَّ ذلك كان معناه الرّدّ الكامل لِمَا قاله المؤرخون من أنَّه وُلِدَ قبل الثلاثين والثلاثمائة؛ لأنَّه يعني أنَّ ابن جنِّي كان في السابعة أو الثامنة من عمره، وهو سنّ لا يُتصور فيه تدريس، بل لا يُتصور فيه العلم بالعربية أصلاً.

---

(1) ابن جنِّي النحوي؛ د. فاضل صالح السامرائي؛ ص36.
(2) البداية والنهاية: 11/ 233، ومقدمة الخصائص: 1/ 20.
(3) انظر: أبو عليّ الفارسيّ؛ د. عبد الفتاح شلبي؛ ص62، 63.

obeikandi.com

**تبقى لنا أربعة آراء يمكن إجمالها في احتمالين:**

**أولهما:** أنَّه وُلِدَ عام 322هـ؛ وهو رأي بعض المُحْدثين، ولا فرق بينه وبين رأي محرِّر دائرة المعارف الإسلامية فهو قريبٌ منه، ثم إنَّه لا مستند له مطلقًا، ولم أجده في كتابٍ معتمد.

**ثانيهما:** أنَّه وُلِدَ عام 302هـ؛ وهو رأي أبي الفداء، وقريبٌ منه بروكلمان، الذي رجَّحتُ أنَّه سها في نقله.

**وهنا أجدني أقربُ إلى الاحتمال الثاني؛ مرجِّحًا رواية ابن خلكان على رواية ابن الأنباري لِمَا يلي:**

**أولاً:** اتَّفقت الروايتان على أنَّه وُجِدَ يُلقى دروسًا في العربية على مجموعة من التلاميذ تحلَّقت حوله، فلو حدَّدنا ميلاده بعام 322هـ لكان عمره خمس عشرة سنة، ومن القليل أن يتعرض شادٍ في سنِّه للتدريس في هذه السنّ المبكرة التي هو أليق فيها بمقام الطالب لا بمقام المعلِّم الموجِّه.

لكنَّ الدكتور عبد الغفار هلال يقول: «ولا مانع من جلوس الإنسان في هذه السنِّ لإلقاء بعض الدروس للراغبين، فالمشاهد في بيئتنا المعاصرة أنَّ طالب الأزهر عندما يذهب إلى بلدته وقد تلقَّى بعض الدروس في معهده يجلس إليه الناس في المساجد وغيرها ليسألوه في إرشادهم فيجيبهم قدر استطاعته».[1]

**وأقول:** هذا قياسٌ مع الفارق لأنَّ قُرانا الصغيرة ما احتاجت إلى طالب الأزهر الشادي إلَّا لانعدام العلماء الثقات فيها، وربَّما لا يكون في القرية قاطبةً من يتلو كتابًا أو يَخُطُّ بيمينه حرفًا، بخلاف الموصل؛ التي وصفها المقدسيُّ بأنَّها «بلد كثير الملوك والمشايخ لا يخلو من إسنادٍ عال وفقيه مذكور»،[2] فكيف يتخطَّى ابن جنِّي في هذه السن هؤلاء العلماء والفقهاء ويتصدَّر دونهم؟ خاصة أنَّ الرواة يجمعون على أنَّ ذلك كان في جامع

(1) ابن جنِّي اللغوي؛ د. عبد الغفار هلال، ص20.
(2) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم؛ ص38.

الموصل، وهو المسجد الكبير الذي تُقام فيه الجمعة، وليس زاوية صغيرة؛ كأنَّها مِفْحص قَطَاة، تحتاج طُوَيْلِبًا للتدريس فيها؟

فتحديد ميلاده بعام 302هـ يعنى أنَّه كان في الخامسة والثلاثين من عمره، وهي سن جَدُّ مناسبة لإلقاء دروس العربية.

**ثانيًا:** أنَّ رواية ابن خلكان تذكر أنَّه تتلمذ على أبى عليّ في بغداد قبل هذه الحادثة، ويقوِّى ذلك عندي ما قاله أبو الفتح في ختام إجازة كتبه «... من جميع رواياتي مما سمعته من شيوخي رحمهم الله وقرأته عليهم بالعراق والموصل والشام وغير هذه البلاد التي أتيتها وأقمت بها». [1]

فترتيب البلاد مقصودُ عندي، وكأنَّه يلمِّح إلى حدوث التلمذة بالعراق أولًا، قبل المَوْصل، فإنْ صحَّ هذا كان من البعيد جدًّا أن يتوهم متوِّهم أنَّ ابن جنِّي قد رحل عن الموصل إلى العراق وطلب بها العلم، ثم جاء لتدريسه كل ذلك قبل الخامسة عشرة من عمره.

وقد يُعْتَرض على هذا بما جاء في بعض الروايات من أنَّ ابن جنِّي لم يعرفه، ولما سأل عنه فقيل له: إنَّه أبو على الفارسيّ، فيُقال: كيف لم يعرف أستاذه الذي تتلمذ على يديه في بغداد؟

والذى أراه أن هذه العبارة من زيادة راوٍ؛ أراد أن يضفي حبكة فنيَّة على خبره، وليس أدلّ على هذه الصناعة الظاهرة ما جاء في تكملة الرواية «... فأخذ في طلبه، فوجده ينزل إلى السُّمَيْرِيَّة، يقصد بغداد، فنزل معه في الحال ولازمه وصاحبه»، [2] فهل هناك صنعةٌ قصصيَّة بعد هذا؟ أنْ يسافر تلميذ مع أستاذٍ يلقاه لأول مرة، وأنْ يترك أهله في البيت دون وداع؟ وأنْ يسافر بلا زادٍ في رحلةٍ بحرية طويلة من الموصل إلى بغداد.

والذي أعتقده أنَّ أبا عليّ اندسَّ بين الحاضرين ليختبر تلميذه في درسه عمليًّا، فوجد علمه لم يُستحكم وخبرته لم تتم، فقال له هذه العبارة على سبيل الدُّعابة لتلميذه الذي ما زال صغيرًا إلى جوار شيخه؟

---

(1) معجم الأدباء: 3/ 479.

(2) نزهة الألباء؛ ص245، والسميرية: ضربٌ من السفن.

obeikandl.com

**ثالثًا:** أنَّ ابن جنِّي رحل مع أبى عليّ إلى حلب عام 341هـ، وهناك ناظَر المُتنبِّي وحاوره في شعره، والمتنبِّي مَنْ هو خبرة بالعربية وتمرُّسًا بأساليبها؟ وهو مَنْ هو في تعاليه على أقرانه؟ فهل كان في مقدور ابن جنِّي مقاومة عاصفة هوجاء تُدْعَى (المتنبي) وهو ابن تسع عشرة سنة؟

ثم إنَّ عبارات المُتنبِّي في حديثه عن ابن جنِّي تُشعر بالتقارب السني بينهما، فقد كان المُتنبِّي يقول فيه: «هذا رجلٌ لا يعرف قدره كثير من الناس»،[1] ويقول: «عليكم بالشيخ الأعور ابن جنِّي، فسلوه فإنَّه يقول ما أردت وما لم أرد»[2].. وعندما سُئل عن بيتٍ قال: «لو كان صديقنا أبو الفتح ابن جنِّي حاضرًا لفسَّره»[3]. فصدور هذه الكلمات (رجل – شيخ – صديقنا) من صخرة كبرياء اسمها المُتنبِّي لا يمكن أن تتوجَّه إلى شابٍ يكبره المُتنبِّي بنحو عِقدين من الزمن، وإنَّما توجَّه لمناظِرٍ في السن، وحسب رأينا فإنَّ ابن جنِّي يكبُرُ المُتنبِّي بعامين، حيث وُلِدَ الأخير عام 304هـ.

**رابعًا:** يحاول البعض تفنيد رواية أبى الفداء بحُجَّة أنَّها تقتضي أن يكون أبو الفتح وقت حادثة الموصل في الخامسة والثلاثين، وما كان أبو الفتح ليقصِّر وهو في هذه السن في مسألة قلب الواو ألفًا، ولا لأبى عليّ أن يقول قولته تلك.[4]

**أقول:** إنَّه اعتراضٌ لا محلَّ له، لأنَّنا لا ندرى ما السؤال الذي وجَّه إليه حول المسألة؟

حيث إنَّه من الممكن توجيه أسئلة فلسفيَّة موغلة في التعقيد حول أوضح المسائل النحويَّة، ثم إنَّ كل إنسان مهما بلُغ علمه عرضة للزّلل في أظهر المسائل، فلكلِّ جوادٍ كبوةٌ، ولكل صارمٍ نبوةٌ، ولكل عالمٍ هفوةٌ، ولن نبتعد عن ابن جنِّي الذي سأله ولَدُه عن إعراب بيت أبى نواس:

**غَيْرُ مَأْسُوفٍ عَلَى زَمَنٍ  يَنْقَضِي بِالْهَمِّ وَالْحَزَنِ**

فارتبك في إعرابه.[5]

من هنا رجَحَتْ عندي رواية أبى الفداء في المختصر ومِلْتُ إلى القول بأنه وُلِدَ عام 302هـ.

---

(1) بغية الوعاة: 2/ 132.
(2) مقدمة الخصائص: 1/ 23، عن مسالك الأبصار: 4/ 306.
(3) معجم الأدباء: 3/ 474.
(4) مقدمة المحتسب؛ ص6.
(5) شرح ابن عقيل على ألفيَّة ابن مالك؛ ص30، ط. الحلبي.

obeikandl.com

# في صحبة أبي عليّ الفارِسِيّ

قضى ابن جنّي عمره جَوَّابَ آفاقٍ، نِضْوَ أسفارٍ، فما زالت الفلواتُ تتقاذفه من المَوْصل إلى حلب إلى بغداد إلى شيراز، وهو في كل هذه الرحلات ينهل من أنهار العلم، ويعلُّ من ينابع الفكر، فإذا كان التاريخ قد طوى عنا حياته قبل صُحبة أبى عليّ، فالذي لا شكَّ فيه أنَّ الرجل «قد رُزِقَ حظًّا عظيمًا جدًّا من الذكاء والحذق والبراعة والجدّ في التحصيل والصبر عليه، والدِّقة في البحث والاستقصاء والرغبة الجامحة، فكان لذلك كلِّه أعظم تأثير في تكوينه؛ حتى أصبح إمام عصره في اللغة والأدب والنحو والصرف، والرئيس الذي انتهت إليه الرياسة فيهما».[1]

ثم بدأت معالم حياته تتجلَّى عقب حادثة جامع الموصل وقول الفارسيّ له: «تزبَّبْتَ وأنت حِصْرم، وكأنَّما فجَّرت هذه الكلمات مكامن علم خَبِيء، واستنبطت عينُ ماءٍ نميرٍ ذاهبٍ في الثرى، واستخرجت معدنًا نفيسًا ضاربًا في الأرض بعروقه، فكانت صلة علمية مباركة، ذلك أنَّ ابن جنّي لازم شيخه حِلًّا وارتحالًا، وكأنَّه أرهف سمعه لكل ما يقول الشيخ حتى كاد يُحصى أنفاسه».[2]

لقد صحب ابن جنّي أستاذه مدة أربعين سنة؛[3] أي منذ حادثة الموصل عام 337هـ، حتى لحق أبو على بالرَّفيق الأعلى عام 377هـ، يتقلب معه في البلاد، ويُجالس الملوك في بَلاطهم بكرامة أستاذه العظيم.

وهنا وجدنا من الباحثين من يشُك في هذه المدة قائلًا: «ويقول بعض المؤلفين إنَّ ابن جنّي لازم شيخه أبا على الفارسيّ أربعين سنة وهذا غير معقول؛ لأنَّ ابن جنّي لم يعيش إلَّا اثنين

---

(1) ابن جنّي أبو الفتح عثمان؛ مقال الأستاذ/ عبد الله أمين؛ بالمقتطف، م 111، ج 3، ص154، 155.

(2) مقدمة تحقيق كتاب «الشعر» لأبى عليّ الفارسيّ؛ د. محمود محمد الطناحي: 1/ 5: 6.

(3) معجم الأدباء: 3/ 466؛ وترجمة أبى عليّ الفارسي فيه: 2/ 414.

وستين سنة، قضى منها قبل ملازمة شيخه نحو عشرين سنة على الأقل، لأنَّ الروايات متضافرة على أنه لازمه بعد أن تصدَّر للتدريس في جامع الموصل، ولا يمكن أن يتصدَّر للتدريس في مسجد جامع قبل سن العشرين، ثم لم يعش بعد شيخه إلَّا خمس عشرة سنة، فإن الشيخ مات سنة 377هـ والتلميذ مات سنة 392هـ، فيكون قضى من عمره كله نحو خمس وثلاثين سنة قبل معرفته شيخه، وبعد افتراقهما بوفاة هذا الشيخ بدون ملازمة له، والباقي من عمره بعد طرح خمس وثلاثين سنة وهو سبع وعشرون سنة، هو الذي يُمكن أن يقال إنَّه لازمه فيه، وأيّ شيخ لا ينفد ما عنده في أقلَّ من نصف هذه المدة؟ وأيُّ طالب يبقى في حاجةٍ إلى شيخه أكثر من نصف هذه المدة».[1]

**أقول:** هذا الشك إنَّما بُنى على فرضين لا نُسلِّم بهما:

**أولهما:** توهّم أنَّه وُلِدَ عام 330هـ؛ وقد بيَّنتُ أنَّه وَهْمٌ خاطئ.

**ثانيهما:** افتراض اللقاء بعد بلوغ ابن جنّي عمر العشرين دون أيّ دليل أو نص، ألم يقرأ الأستاذ الفاضل في الخصائص قول ابن جنّي: «وأنشدنا أبو عليّ – رحمه الله – لجرير:

**سِيرُوا بَنِي الْعَمِّ فَالأَهْوَازُ مَنْزِلُكُمْ وَنَهْـرُ تِيرِي فَلا تَعْرِفْكُمُ العَرَبُ**

بسكون فاء تعرفكم، أنشدنا هذا بالموصل سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة»؛[2] ليعرف خطأ هذه المسألة الحسابية التي لا يستند صاحبها إلى أُسس تاريخيَّة؟

أما إنَّ هذه المدة طالت على غير العادة، فهي حقًّا طويلة إلاّ أنَّ هناك أسبابًا أخرى – بالإضافة إلى طلب العلم – جعلت الرحلة تطول على غير العادة؛ لعلَّ منها:

(1) لم يكن لأبي عليّ الفارسيّ ولد، إذ يبدو أنَّه لم يتزوج طوال هذا العمر المديد،[3] يؤيد ذلك قول ابن جنّي في الثناء عليه: «ولله هو وعليه رحمته، فما كان أقوى قياسه، وأشدّ لهذا

(1) ابن جنّي: أبو الفتح عثمان؛ مقال المقتطف، ص159، 160.
(2) الخصائص: 1/ 75.
(3) انظر: أبو علي الفارسيّ؛ د. عبد الفتاح شلبي، ص65.

العلم اللطيف الشريف أُنسه، فكأنَّه إنَّما كان مخلوقًا له، وكيف كان لا يكون كذلك، وقد أقام على هذه الطريقة مع جُلَّة أصحابها وأعيان شيوخها سبعين سنة زائحة عِلله، ساقطةً عنه كلفه، وجعله همّه وسدمه، لا يعتاقه عنه ولدٌ ولا يعارضه فيه متجرٌ، ولا يسوم به مطلبًا، ولا يخدم به رئيسًا إلا بأخرة، وقد حط من أثقاله، وألقى عصا ترحاله».[1]

فلعلَّ الفارسيّ جعل من ذلك الشاب النجيب ولده الذي يأنس به، وعدَّه ابن جنّي بمنزلة أبيه.

(2) يبدو أنَّ ابن جنّي كان فقيرًا، فوالده كان مملوكًا، وهو عائل بنفسه؛ فكيف يعول أبناءه الثلاثة: عليًّا وعاليًا وعلاء؟ يؤكّد هذا الفقر قوله في صدر المحتسب: «ولعل الخطرة الواحدة تخرق بفكري أقصى الحُجب المتراخية عني في جمع الشتات من أمري، ودَمْلِ العوارض الجائحة لأحوالي، وأشكر الله ولا أشكوه، وأسأله توفيقًا لما يُرضيه».[2]

وقد أشار إلى غناه بالعلم عمَّا فاته من متاع الدنيا بقوله:

**وَإِمَّـا فَـاتَنِـي نَشَـبٌ كَفَانِي ذَاكَ مِنْ نَشَبِي**[3]

بينما كان أبو عليّ ميسورًا إلى حدٍّ بعيد، يتمتع بالعيش الرغيد في بلاط الملوك، وقد كان سخيًّا حتى رووا «أنَّه أوصى بثُلث ماله لنُحاة بغداد فكان ثلاثين ألف دينار»[4]. فكأن ابن جنّي قد آثر العيش في ظل العطايا السخيَّة التي طالت النُّحاة الآخرين؛ فكيف بتلميذه الذي يلازمه؟ وكأنَّ الله قد عوَّض ابن جنّي عن فقره أستاذًا سخيًّا بعلمه وماله.

(3) كان أبو عليٍّ على اتصالٍ بالملوك والأمراء من آل بويه، وقد ألَّف باسمهم كثيرًا من كتبه، حتى إنَّ عضد الدولة البويهي كان يقول: «أنا غلام أبي عليّ في النحو».[5]

---

(1) الخصائص: 1/ 278.
(2) المحتسب: 1/ 34.
(3) معجم الأدباء: 3/ 472.
(4) غاية النهاية في طبقات القراء: 1/ 207.
(5) معجم الأدباء: 2/ 414.

obeikandi.com

بل وصلت حظوته عندهم إلى حدٍّ أنَّه أصبح وكيلا عن عضد الدولة في عقدِ زواج ابنته الكبرى من الطائع لله،[1] وكأنَّ ابن جنّي جعل من أستاذه سُلَّمًا للوصول إلى بلاط الأمراء فيحظى بمثل ما حَظِيَ به شيخه، وقد كان.

فلا غرابة إذن في تلك الصحبة الطويلة التي بدأت بالموصل سنة 337هـ، وظل الرجلان بين بغداد والموصل حتى عام 341هـ؛ الذي شهد راحة بالموصل حدَّث فيها ابن جنّي عن شيخه كثيرًا،[2] لينتقلا معًا في العام نفسه إلى حلب؛ حيث بلاط سيف الدولة الحمداني[3] العامر بالنُّحاة والكُتَّاب والشعراء، ليخوضا معًا غِمَار المناقشات الحامية الوطيس في ذلك المجلس الزاخر، والتي كان لها أكبر الأثر في أنَّ ابن جنّي حتى اشتد عوده، وقوى أُمْلُوده كما سنبيِّن إن شاء الله.

ويبدو أنَّ ابن جنّي كان يستأذن أستاذه أحيانًا ليرى أهله بالموصل بين الفَيْنة والفَيْنة بدليل: «وقد كان أبو عليّ - رحمه الله - كتب إليَّ من حلب وأنا بالموصل مسألة أطالها في هذه اللفظة»،[4] ولكنَّ الرجل لم يقطع أستاذه، بل كان سريعًا ما يعاود أدراجه، وآخر إشارة تدل على إقامته بحلب قوله: «وحدَّثني أبو عليّ بحلب سنة ست وأربعين».[5]

ثم غادر حلب إلى بغداد في ذلك العام؛ حيث ألقى عصا التسيار ليتفرغ لخدمة البيت البويهي: عضد الدولة، وولده صمصام الدولة، وولده شرف الدولة، وولده بهاء الدولة؛ الذي مات في عهده، وكان يلازمهم في دُورهم ويُبَايتهم.[6]

وفى أثناء هذه المدة كان يزور شيراز حتى تكتحل عينه برؤية ابن العميد، لكنها كانت زيارات نادرة لا تنفى إقامته ببغداد.

---

(1) البداية والنهاية: 11/ 315.
(2) انظر: الخصائص: 1/ 75، المحتسب: 1/ 186.
(3) انظر: وفيات الأعيان: 2/ 80.
(4) الخصائص: 3/ 40.
(5) المحتسب: 1/ 83، الخصائص: 2/ 90.
(6) إنباه الرواة: 2/ 340.

وقد ظلَّ ابن جنِّي بمنزلة النائب لأستاذه حتى تُوفِّي الشيخ عام 377هـ، ليتصدر بعدها ابن جنِّي للتدريس في بغداد حتى توافيه منيَّته عام 392هـ.

وليس معنى ملازمة ابن جنِّي لأبي علي الفارسيّ أنَّه حصر مصادر معرفته فيه، ولم يتنفس إلاّ من رئته، فقد أفاد من ثُلَّةٍ ضخمة من العلماء؛ [1] حتى إنَّه ليُخَيَّلُ للباحث أنَّ ابن جنِّي كان يعُد أنفاس علماء عصره، ملتقطًا الحكمة من فَمِ من يحملها أيًّا كان، فهي ضالته أنَّى وجدها فهو أحقّ بها، حتى ولو كان حاملها أعرابيًّا جِلْفًا، إذ ربما تدفَّقت القاعدة على لسانه دون قصد فيهتبل ابن جنِّي الدلالة الخطيرة لهذا التدفق، فقد حدَّثنا قائلًا: «حضرني قديمًا بالموصل أعرابيٌّ عقيليّ جَوْني تميمي يُقال له محمد بن العساف الشجري، وقلَّما رأيت بدويًّا أفصح منه، فقلت له يومًا شغفًا بفصاحته، والتذاذًا بمطاولته، وجريًا على العادة معه في إيقاظ طبعه، واقتداح زَنْد فطنته: كيف تقول أكرم أخوك أباك؟ فقال: كذلك، فقلت له: أفتقول: أكرم أخوك أبوك؟ فقال: لا أقول أبوك أبدًا؟ فقلت له: فكيف تقول: أكرمني أبوك؟ فقال كذلك، قلت: ألست تزعُم أنك لا تقول أبوك أبدًا؟ فقال: إيش هذا؟ اختلفت جهتا الكلام... فهل قوله (اختلفت جهتا الكلام) إلا كقولنا نحن: هو الآن فاعل وكان في الأول مفعولا؟ فانظر إلى قيام معانى هذا الأمر في أنفسهم وإن لم تقطع به عبارتهم».[2]

إنَّه ذكاء المحاور، وقوة استدلال بمعنى قصد العرب لمعاني الإعراب، ذلك المعنى الذي جاء على لسان أعرابي لا يعرف أقيسة النُّحاة ولا اصطلاحات علماء العربية.

**وبعد؛** فهذه لمحة عن حياة الرجل الرَّحالة طلبًا للعلم، والعلم بعض فوائد الأسفار، ذلك العلم الذي جعل يجمع ذرَّاته من أفواه العلماء وغير العلماء، ليكوِّن هذا الجبل الضخم من العلم الفاقه لأسرار العربية السابر لأغوارها، حتى إن الـمُطالع لكتبه يجد احتشادًا ضخمًا وسيلًا متدفقًا من شتى المعارف؛ نحويَّةً وصرفيَّةً ولغويَّةً وأدبيَّةً ونقديَّةً وبلاغيَّةً وتاريخيَّةً، وكأنَّنا أمام دائرة معارف، أو على مائدة رائعة تحفل بما لَذَّ وطاب من علم وفن.

---

(1) انظر أسماءهم في: مقدمة الخصائص: 1/ 16، ابن جنِّي النحوي؛ ص28، أبو الفتح بن جني؛ د. أسعد طلس – مجلة المجمع العلمي العربي م30، ج3، ص447.

(2) الخصائص: 1/ 77، معجم الأدباء: 3/ 475، 476.

# صفاته وشمائله

لكلِّ إنسان صفات في خَلْقِهِ وَخُلُقِهِ تميِّزه من غيره، وتحدِّد اتجاهه السلوكي في حياته، وترسم صورةً عنه في مخيلة الآخرين إنْ بالاستحسان وإنْ بالاستهجان - ومن خلال الأخبار التي وصلتنا عن ابن جنّي نستطيع تحديد ملامح شخصيته العبقرية خَلْقًا وَخُلُقًا فيما يلي:

**(1) العَوَر:**

كان أبو الفتح - رحمه الله - ممتعًا بعينٍ واحدة، وقد أخفت عنا كتب التراجم سِرَّ ذلك، هل وُلِدَ كذلك؟ أو ذهب بصرها في حادثة معينة؟

وقد تحدَّث هو عن عَوره قائلًا: [1]

**صُدُودُكَ عَنِّي وَلا ذَنْبَ لِي ... دَلِيلٌ عَلَى نِيَّةٍ فَاسِدَهْ**

**فَقَدْ وَحَيَاتِكَ مِمَّا بَكَيْتُ ... خَشَيتُ عَلَى عَيْنِيَ الوَاحِدَهْ**

**وَلَوْلَا مَخَافَةُ أَنَّا أَرَاكَ ... لَمَا كَانَ في تَرْكِهَا فَائِدَهْ**

وعلى الرغم من أن ابن خلكان يشكِّك في نسبة الأبيات إليه قائلًا: «وقيل إنَّ هذه الأبيات لأبي منصور الديلميّ»؛[2] فإنَّنا نرى أنَّ عَوَره ثابت بغير تلك الأبيات، إذ ترجم له الصلاح الصفدي في كتابه الفريد (الشعور بالعَوَر)،[3] كما أنَّ أحد خصومه نَبَزَه بذلك العيب قائلًا:[4]

**وَنَحْنُ مِنْ طِينَةٍ خُلِقْنَا ... مَا خُلِقَ الجِنُّ مِنْهُ نَارُ**

**العُرُّ وَالعَارُ فِيكَ تَمَّا ... وَالعَوَرُ التَّامُّ وَالعُوَارُ**

---

(1) معجم الأدباء: 3/ 466، وفيات الأعيان: 3/ 246، نزهة الألبَّاء: 1/ 333.

(2) وفيات الأعيان: 3/ 246.

(3) انظر: الشعور بالعور (مخطوط)؛ ص131 - 137.

(4) معجم الأدباء: 3/ 467.

وقد كان القدماء - رحمهم الله - يعبِّرون عن ذلك العيب قائلين: «وكان أبو الفتح بن جنِّي مُمَتعًا بإحدى عينيه»،[1] وكأن هذه الكناية من باب التوجيه البديعيّ فإنَّ إحدى العينين الممتَّع بها الأعور يجوز أن تكون المبصرة يتمتع بالإبصار بها، والاهتداء بنورها، ويجوز أن تكون الذاهبة، فالأعور ممتَّع بثواب الصبر عليها والأجر على فقدها[2].

## (2) الجِدّ:

فقد عاش ابن جنِّي منهومًا في طلب العلم، همّه اقتناص المعرفة، فمن الطبعي أنْ ينأى بنفسه عن مجالس اللهو، وأن يربأ بنفسه عن مخالطة أهل العربدة أو الاسترسال معهم في مرحهم ومجونهم، معتقدًا أنَّ ذلك يخل بمروءته ويزرى بمكانته التي هي أعلى من كل هذه السفاسف في عيون الناس «فقد جمعه مجلس مع أبى الحسين القُمِّيّ، وكان لابن جنِّي عادةً في حديثه بأن يميل بشفَّته ويُشير بيده، فبقى أبو الحسين القُمِّيّ شاخصًا ببصره يتعجب منه، فقال له ابن جنِّي: ما بك يا أبا الحسين تحدِّق إليَّ النظر وتُكثر منِّى التعجب؟ قال: شيءٌ ظريف، قال: ما هو؟ قال: شَبَّهت مولاي الشيخ وهو يتحدث ويقول ببوزه كذا وبيده كذا بقردٍ رأيته عند صعودي إلى دار المملكة، وهو على شاطئ دجلة يفعل مثل ما يفعله مولاي الشيخ، فامتعض أبو الفتح وقال: ما هذا القول يا أبا الحسين؛ أعزَّك الله، ومتى رأيتني أمزح فتمزح معي، أو أمجن فتمجن بي؟»[3].

ولعلَّ كل قارئ لكتب ابن جنِّي يحسّ فيه هذه الصفة، إذ يشعر عند قراءة المسألة أنَّه أمام مبارز في ميدان، أو فارس في حلبة الفرسان، يصاول بجسارة، ويُقاتل بحرارة، كأنما يُجالد عدوًّا شرسًا مجالدة لا تعرف اللين أو الهوادة.

---

(1) معجم الأدباء: 3/ 466.
(2) مقدمة الخصائص 1/ 13، 14.
(3) معجم الأدباء: 3/ 462.

obeikandl.com

ورحم الله الشريف الرضيَّ الذي لمس في شيخه تلك الصفة، فندب في رثائه له هذه الصفة القتالية قائلاً[1]:

فَمَنْ لأَوَابِي الْقَوْلِ يَبْلُو عِرَاكَهَا وَيَحْذِفُهَا حَذْفَ النَّبَالِ المَوَارِق

إِذَا صَاحَ في أَعْقَابِهَا أَطْرَدَتْ لَهُ ثَوَانِيَ بِالأَعْنَاقِ طَرْدَ الوَسَايِقِ

### (3) التقوى والعفَّة:

من يقرأ فكر ابن جنّي يجد منه امرأً عفيفًا مهذبًا، طاهر القلب عَفَّ اللسان، يترقرق ماء التقوى في جبينه، ويفوح عبير الورع من بين أردانه، تلمس ذلك واضحًا وهو يقول في خطبه كتابه (المحتسب): «اللهم إنَّا نحمدك أقصى مدى الحامدين، ونعترف بآلائك كما أوجبت على المطيعين من عبادك المُعْتَرِفين، ونسألك أن تصلِّي على نبيك المرتضى وآله الطاهرين، وأن تُحسن عوننا وتسديدنا على ما أجمعنا فيه القُربة إليك، في أملنا به لطف المسعاة فيما يدنى منك، ويحظى بالزُّلفة لديك، وأن تجعل أعمالنا لك، واتصالاتنا بك، ومطالبنا مقصورة على مرضاتك، وإن قصّرت أفعالنا عن مفروضاتك وَصَلْتَهَا برأفتك بنا، وَتَلافَيْتَنَا من سيئات أنفسنا ما امتدت أسباب الحياة لنا، فإذا انقضتْ علائقُ مُدَدِنا، واستُوفي ما في الصحف المحفوظة لديك من عَدَدِ أنفاسنا، واستؤنفت أحوال الدار الآخرة بنا، فاقلبنا إلى كنز جنَّتك التي لم تُخلق إلَّا لمن وسع ظلُّ رحمتك».[2]

إنَّنا أمام عابد يتضرع في محرابٍ، ملتحف رداء الذُّل أمام مولاه، مستشعر عظمة الخالق التي ترهبه، آملٍ في عفوه الذي يرغِّبه، ولا غروَ فهو القائل معترفًا بآلاء الله التي أسبغها عليه ظاهرة وباطنة:[3]

---

(1) ديوان الشريف الرضي: 2/ 65، والنبال الموارق هي التي تمرق من الرمية فتخرج من الجانب الآخر، والوسايق: جمع وسيقة؛ وهي القطيع من الإبل يجمعها صاحبها ولا يدعها تنتشر عليه.

(2) المحتسب: 1/ 31.

(3) معجم الأدباء: 3/ 471، 472.

شَكَرْتُ اللهَ نِعْمَتَــهُ وَمَا أَوْلاهُ مِــنْ أَرَبِ
زَكَتْ عِنْدِي صَنَائِعُهُ فَوَفَّقَنِي وَأَحْسَنَ بِي
تَخَـوَّلَنِي وَخَـوَّلَنِـي وَنَـوَّلَنِي وَنَــوَّهَ بِـي
وَأَخَّرَ مِنْ يُقَادِمُنِي وَأَعْلانِي وَأَرْغَمَ بِي

إنَّ اعترافه بالنعمة واعتزازه بها لا يعنى اغتراره ولا يشي بشيء من الكِبر الذي تبرَّأ منه ابن جنِّي كلَّ البراءة، فهو معتقد أنَّ العلم منحة إلهية، ومعترف أنَّه من فيض علم الله يغترف، ألم يقل عن ابن مجاهد: «ورحم الله أبا بكر؛ فإنه لم يأْلُ فيما علمه نصحًا، ولا يلزمه أن يرى غيره ما لم يُره الله تعالى إيَّاه، فسبحان قاسم الأرزاق بين عباده، وإيَّاه نسأل عصمة وتوفيقًا وسدادًا بفضله». [1]

والحقُّ أنَّ الرجل كان عَفُّ القلم كما كان عَفُّ اللسان، إذ كان يعافّ الكلمة العوراء، ويأبى العبارة المُنْدية للجبين، حتى إنَّه كان يغيِّر في الشعر ما يستقبح ذِكره إلى مرادفه أو إلى معناه «فقد كان ينشد قول الشاعر:

أَجَنْـدَلُ مَـا تَقُـولُ بِنُـو نُمَيْــرٍ إِذَا مَا الفَعْلُ في اسْتِ أَبِيكَ غَابَا

والفعل محولٌ عن الأَيْر، وقد تعمَّد ذلك لينجو من معرَّة اللفظ، ولو تهيأ له أن ينجو من الاست لفعل». [2]

ورحم الله الشريف الرضيّ الذي تحسَّس منه تلك الخَلَّة الرائعة فبكاها في رثاءه قائلًا [3]:

مَضَى طَيِّبَ الأَرْدَانَ يَأرَجُ ذِكْرُهُ أَرِيجَ الصَّبَا تَنْدَى لِعِرْنِينِ نَاشِقِ
وَمَا احْتَاجَ بُرْدًا غَيْرَ بُرْدِ عَفَافِهِ وَلا عَرْفَ طِيبٍ غَيْرَ تِلْكَ الخَلائِقِ

(1) المحتسب: 1/ 71.
(2) مقدمة الخصائص: 1/ 16.
(3) ديوان الشريف الرضي: 2/ 66.

### (4) احترام أهل العلم:

من أَجَلِّ صفات العالِم الحقّ أنَّه يحترم أساتذته، ويبجِّل أهل العلم، ويحفظ أقدارهم ولا يرضى من نفسه ولا من أحد غيره بانتقاصهم أو الزراية عليهم، وقد كان ابن جنِّي قدوةً في هذا الميدان، إذ التحف الرجل ثياب التواضع مع أهل العلم، خاصة أستاذه أبا علي الفارسيّ؛ الذي أثنى عليه الثناء كله، فلا يذكره إلا مُترحِّمًا عليه، مَحُوطًا بإكليلٍ من عبارات الثناء؛ حيث يقول مثلًا: «وهذا أبو علي - رحمه الله - كأنه بعدُ معنا، ولم تَبِنْ به الحال عنا، كان من تحوُّبِه، وتأنِّيه وتحرُّجِه كثير التوقُّف فيما يحكيه، دائم الاستظهار لإيراد ما يرويه؛ فكان تارة يقول: أنشدتُ لجرير فيما أحسب، وأخرى: قال لي أبو بكر فيما أظن، وأخرى: في غالب ظني، وأرى أنِّي قد سمعت كذا».[1]

إنَّنا نفهم من النص أنَّه كتبه بعد وفاة شيخه، لكنه لم يتنصل منه، فيقلب له ظهر الـمِجَنِّ كما يفعل بعض الطلَّاب العاقِّين مع شيوخهم، يتزلَّفون إليهم وهم ضعاف، فإذا ما اشتد ساعدهم رموا أساتذتهم، وعقُّوا الأيدي التي كانت تُمَدُّ إليهم وهم عاجزون.

ونحن نعلم أنَّه من العادات السيئة للمؤلفين في القديم والحديث انتقاص المتقدمين في مجالاتهم، فترى المؤلف يهوِّن من جهود السابقين ويصفهم بالحق طورًا وبالباطل أطوارًا بالتخليط والتخبط، لكن ابن جنِّي كان براءً من تلك الشِنْشِنَة المعروفة من أَخْزَم، فهو في صدر «الخصائص» يذكر أنَّ الأخفش قد سبقه إلى تأليف كُتَيِّب في مقاييس العربية أو أصول النحو الذي هو أجلُّ موضوعات الخصائص؛ فيقول: «على أنَّ أبا الحسن قد كان صنَّف في شيءٍ من المقاييس كُتَيِّبًا، إذا أنت قرنته بكتابنا هذا علمت بذلك أنَّا نُبْنا عنه فيه، وكفيناه كُلفة التعب به، وكافأناه على لطيف ما أولاناه من علومه المسوقة إلينا، المُفِيضة ماء البِشْر والبشاشة علينا»[2].

---

(1) الخصائص: 3/ 316.

(2) الخصائص: 1/ 2.

وعندما شرح تصريف المازنيّ ذكر أنَّه سُبِق بكتب وقع فيها خلطٌ واضطراب، ثم أحسَّ بغلاظة الكلمة فبادر بالاعتذار قائلًا: «وليس هذا غضًّا من أسلافنا، ولا توهينًا لعلمائنا، كيف وبعلومهم نقتدي، وعلى أمثلتهم نحتذي». (1)

إنَّها لغة عزيزة جدًّا على ألسنة المؤلفين الطامعين في الشهرة، الطامحين إلى المجد الذين دأبوا على الصعود على أكتاف الآخرين ثم يدوسونهم، ويدَّعى كلٌّ منهم أنَّه الفارس الذي لا يُجَارَى، والعالِم الذي لا يُبَارى.

ولم يكتف ابن جنِّي بالثناء على أساتذته وإنْ عَلَوْا، بل رأيناه يُثنى على خصومِ مدرسته الفكريَّة التي ينتمى إليها، فقد كان بصرى المذهب، مع ذلك يُثنى على الكسائيّ - وهو كوفيٌّ - قائلا: «هذا إلى ما يُعرف عن عقل الكسائي وعفَّته وَظَلَفه ونزاهته، حتى إنَّ الرشيد كان يُجلسه ومحمد بن الحسن على كرسيين بحضرته ويأمرهما ألا ينزعجا لنهضته»، (2) ويُثني على ثعلب - وهو كوفيّ - على الرغم من أنَّه يرى خلاف رأيه قائلاً: «وهذا وإن كان مذهبًا مدخولاً عندنا، وهو بضدِّ الصواب الذي هو مذهب سيبويه، فقد قال به رجلٌ يُعَدُّ جبلاً في العلم، وإليه أفضت مقالات أصحابنا، وهو الذي نقلها وقررها وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها». (3)

وليس معنى تبجيل أهل العلم واحترام السلف إغماض العينين عن أقوال السابقين تحت دعوى أنَّه ليس في الإمكان أبدع مما كان، أو تحت ستار: إنَّا وجدنا آباءنا على أُمَّةٍ وإنَّا على آثارهم مقتدون، فإنَّ الرجل يُعطى نفسه وغيره الحق كلَّ الحق في مناقشة السَّلف وَسَبْر آرائهم وتوجيه أفكارهم، ثم الإعلان عن المخالفة لهم متى تحقَّق الخالف من صحة مقولته، دون غَضٍّ من جهد القدماء أو تهوينٍ من قيمة علمهم إذ يقول: «فكل من فُرِق له عن علةٍ

(1) المنصف؛ لابن جنِّي: 1/ 3.
(2) الخصائص: 3/ 314.
(3) سر صناعة الإعراب، تحقيق: د. حسن هنداوي (وهي التي اعتمدتُ عليها كليًّا، فإن رجعت إلى طبعة الحلبي أشرت إلى ذلك): 1/ 129، 130.

صحيحة، وطريق نهجةٍ كان خليل نفسه وأبا عمرو فكره، إلَّا أنَّنا مع هذا الذي رأيناه وسوّغنا مرتكبه لا نسمح له بالإقدام على مخالفة الجماعة التي قد طال بحثها وتقدَّم نظرها، وتتالت أواخر على أوائل، وأعجازًا على كلاكل، والقوم الذين لا نشكّ في أنَّ الله سبحانه وتقدست أسماؤه قد هداهم لهذا العلم الكريم، وأراهم وجه الحكمة في الترحيب له والتعظيم، وجعله ببركاتهم وعلى أيدى طاعاتهم خادمًا لكتابه المنزَّل، وكلام نبيه المرسل، وعونًا على فهمهما، ومعرفة ما أمر به أو نهى عنه الثقلان منهما، إلَّا بعد أن يناهضه إتقانًا، ويثابته عرفانًا، ولا يخلد إلى سانح خاطره ولا إلى نَزْوةٍ من نزوات تفكُّره، فإذا هو حذا على هذا المثال، وباشر بإنعام تصفُّحه أَحْنَاء الحال، أمضى الرأي فيما يُرِيَهُ الله منه، غير معازٍّ به، ولا غاضٍّ من السَّلف – رحمهم الله – في شيءٍ منه». [1]

وهذه العبارات حَرِيَّةٌ بأن تُكتب بماء الذهب في تاريخ الفكر العربي، إذ جمع فيها الرجل معاني الحريَّة في أبهى مجاليها، فاتحًا باب التجديد والاجتهاد في علوم العربية مع وجوب احترام السَّلف وعدم الغض منهم، وأين هذا من دعاة المعاصرة الآن؟!

(1) الخصائص: 1/ 191.

# أسلوبه

دَرَجَ جُلُّ النّحاة من قبل ابن جنّي ومن بعده على كتابة النحو بأسلوبٍ معقَّد يجعل القارئ يتعثر في صخور العبارات وجنادل الأوزان، كما يتعثر الساري في مفازةٍ بالغة الوعورة، ولعلَّ ذلك كان سببًا من أسباب عزوف الناشئة عن هذا العلم الشريف، حتى إنَّ أبا مسلم مؤدِّب عبد الملك بن مروان لما شرع يتعلم العربية صُدم بعد فترة بأحجار من الأوزان الصرفية، فقال:[1]

قَدْ كَانَ أَخْذُهُمُ في النَّحْوِ يُعْجِبُنِي ... حَتَّى تَعَاطَوْا كَلامَ الزِّنْجِ وَالرُّومِ

لَمَا سَمِعْتُ كَلامًا لَسْتُ أَفْهَمُهُ ... كَأَنَّهُ زَجَلُ الغِرْبَانِ وَالْبُومِ

تَرَكْتُ نَحْوَهُمُ وَاللهُ يَعْصِمُنِي ... مِنَ التَّقَحُّمِ في تِلْك الجَرَاثِيمِ

وقد ظلت تلك الطريقة شِنْشِنَةً للنحاة دهرًا طويلًا، غير أنَّ ابن جنّي – ذلك العالِم الأديب – يُعَدُّ مِنْ أبرز مَنْ تمرَّد على تلك الطريقة العقام، فإذا هو يكتب اللغة والنحو بلسان الأدب، فالمطالع كتبه يجد رونق الفصاحة وماء البلاغة يترقرق في صفحة كتبه فيمنحها الحلاوة والطلاوة التي تُقربها من النفوس وتُحببها إلى القلوب، وتجعل الناشئة أكثر أُنسًا بها وأعظم ارتياحًا لها، بما فيها من جمال العرض، وروعة ورود المحسِّنات البديعية على لسانه عفوًا دون تكلف.

استمع إلى قوله في الثناء على سيبويه الذي أعطاه الحق الكامل في القياس على كلام العرب: «ولما كان النحويون بالعرب لاحقين، وعلى سمتهم آخذين، وبألفاظهم مُتَحَلِّين، ولمعانيهم وقصودهم آمِّين، جاز لصاحب هذا العلم الذي جمع شعاعه، وشرع أوضاعه،

(1) طبقات النحويين واللغويين؛ للزبيدي، ص125، 126.

ورسم أشكاله، ووسم أغفاله، وخلج أشطانه، وبعج أحضانه، وزم شوارده، وأفاء فوارده، أنْ يرى فيه نحوًا مما رأوا، ويحذوا على أمثلتهم التي حذوا». [1].

ويقول في معرض الحديث عن وصول المحدثين إلى درجة القدماء إذا جدُّوا واجتهدوا: «فمَنْ أمدَّه الله بصفاء القريحة، وأيَّده بمضاء الخاطر والرويَّة، وواصل الدرس، وأجشم النفس، وهجر في العلم لذاته، ووهب له أيام حياته، امتاز من الجمهور الأعظم، ولحق بالصدر المقدَّم، ولحظته العيون بالنفاسة، وأشارت إليه الأصابع بالرياسة، وكان موفَّقًا لما يرفعه ويُعليه، مسددًا فيما يقصده له وينتحيه». [2]

فمن يقرأ هذين النصيين وغيرهما من نصوص ابن جنِّي يلحظ - علاوة على الأدب الجمِّ والإنصاف المطلق للقدماء والمحدثين، واعتدال الدعوة إلى التجديد - روعةَ السجع المتلاحق الذي يُكسب العبارة موسيقى غاية في العذوبة، وجمالَ الإطناب غير المُملّ الذي يطلب معه السامع المزيد ثم المزيد، ناهيك عن عباراته القوية الجزلة التي أصبحت مَعْلَمًا من معالم أسلوبه، ذلك الأسلوب الذي أصبح مضرب المثل في الفصاحة، وليس أدل على ذلك من قول الأبيوَرْدي في أبي عليّ المرزوقيّ شارح الحماسة: «وهو يتفاصح في تصانيفه كابن جنِّي». [3]

وقد وضع الدكتور أسعد طلس يده على تلك السمة العظيمة قائلاً: «ولم يكن ابن جنِّي مُحْسِنًا قول الشعر فحسب، بل كان مُجيدًا في النثر أيضًا، وليس أدلَّ على ذلك من هذه اللغة الحلوة، وهذا الأسلوب الذي نراه في كتبه العلميَّة كـ (سر الصناعة، والخصائص)، فأنا لا أعرف نحويًّا أو صرفيًّا أو بلاغيًّا كتب النحو والصرف والبلاغة بلغةٍ كلُّها سلاسة وعذوبة، وكلُّها جمال ولذَّة، وبأسلوب فنيّ رائع إلا الإمام أبا الفتح بن جنِّي، والإمام عبد القاهر الجرجاني - رحمهما الله» [4].

---

(1) الخصائص: 1/ 309، 310.
(2) المنصف؛ لابن جنِّي: 1/ 6.
(3) معجم الأدباء: 2/ 19.
(4) أبو الفتح بن جنِّي؛ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، م30، ج4، ص613.

وقد كان الدكتور أسعد طلس موفَّقًا إلى حَدٍّ بعيد في الجمع بين هذين الإمامين العظيمين؛ فكلامها من النحاة الحذَّاق الذين ألَّفوا في العربية نحوًا وصرفًا، وكلاهما من البلاغيين المهرة الذين أسَّسوا نظريات هذا العلم، وكلاهما جمع في أسلوبه بين دقة العلم وحلاوة العبارة، حتى إنَّ القارئ لهما ليتحيَّر؛ أهو أمام عقل عالِمٍ متفلسف؟ أم أمام ريشة فنان متأنِّق؟ لِمَا يرى من تعانق جسد العلم وروح الفن تعانقًا حميمًا في أسلوبهما البديع.

والذى لا شك فيه أنَّ شيخ البلاغيين عبد القاهر قد حذا حذو ابن جنِّي في عباراته، وأوضحُ ظاهرة لمحتها في هذا المجال ظاهرة التمهيد للأبواب، يقول ابن جنِّي مثلًا في تقديم باب (فك الصيغ): «اعلم أنَّ هذا موضع من العربية لطيف، ومغفول عنه، وغير مأْبُوهٍ له، وفيه من لطف المأخذ وحُسن الصنعة ما أذكره لتعجب منه وتأنق له»[1].

فوجدنا الإمام عبد القاهر يحذو حذوه تمامًا؛ فيقول مثلًا في التقديم لباب (التقديم والتأخير): «هو باب كثير الفوائد، جَم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا تزال يفترُّ لك عن بديعة، ويُفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرًا، يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أنْ راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان».[2]

ويقول مقدمًا باب (القول في الحذف): «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسِّحر، فإنك ترى به الذِّكر أفصح من الذِّكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بيانًا إذا لم تُبِن».[3]

فأمثال هذه السجعات الساحرة وتلك اللغة الشاعرة إنَّما تسربت إلى شيخ البلاغيين عبد القاهر من خلال قراءةٍ متأنية لكتب ابن جنِّي التي أكبَّ عليها دهرًا طويلاً، والتي تصل فيها هذا السجعات إلى حد الظاهرة، حتى إنك تجدها سافرة في عناوين الأبواب مثل: باب في

(1) الخصائص: 3/ 31.
(2) دلائل الإعجاز؛ تحقيق: محمود شاكر، ص106.
(3) دلائل الإعجاز، ص146.

obeikandl.com

تقاود السماع وتقارع الانتزاع، باب في قلب لفظ إلى لفظ بالصنعة والتلطف لا بالإقدام والتعجرف، باب في اتفاق المصاير على اختلاف المصادر، باب في تلاقى المعاني على اختلاف الأصول والمباني، باب فيما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية.

وفى أثناء كلامه له تعقيبات جيدة على المسائل اللغوية يتضح من خلالها منهجه الأسلوبي الساحر الحافل بالسجع كقوله: «وستراه فتجده طريفًا غريبًا، ومسلكًا من هذه اللغة شريفًا عجيبًا»، وقوله: «وإذا قام الشاهد والدليل، وضح المنهج والسبيل»، وقوله: «لكان استطالة على الحرفين ، وهتكًا للحرمتين» ، وقوله : «فإنه جيد في معناه، ونافع في سواه، مما هو شَرْواه».[1]

وقد كان هذا الأسلوب البليغ مدعاةً لأن يفهم بعض الباحثين أنَّه تولى ديوان الإنشاء قائلًا: «وفى الحقيقة أنَّه كان كاتبًا من خير كُتَّاب زمنه، وليس أدل على ذلك من توليه ديوان الإنشاء لسيف الدولة الحَمْدانيّ، ولعضد الدولة الديلميّ».[2]

ولستُ أدري من أين استقى الدكتور الفاضل هذه المعلومات، وهل كان لسيف الدولة ديوان إنشاء أو لا؟ وهل يُعقل أنْ يتولى ابن جنِّي هذا الديوان وحوله في حلب أئمة أقوى منه عودًا وأعظم خطرًا في ذلك الوقت؟

وأما توليه لعضد الدولة؛ فلعله استفاد ذلك من قول القفطيّ: «وخدم أبو الفتح بن جنِّي البيت البويهي، عضد الدولة وولده صمصام الدولة، وولده شرف الدولة، وولده بهاء الدولة، وفى زمانه مات، وكان يلازمهم في دورهم ويُبايتهم».[3]

وليس في العبارة ما يدل على تولى ديوان الإنشاء، وإنَّما تدل على أنه كان مقرَّبًا عندهم يأنسون إليه، وينال من برهم وألطافهم، ولا يراد أنَّه يلي لهم عملًا من أعمال الديوان.[4]

---

(1) انظر: الخصائص: 1/ 5، 1/ 13، 2/ 474، 3/ 165 على الترتيب.
(2) أبو الفتح بن جني؛ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، م30، ج 4، ص 610.
(3) إنباه الرواة: 2/ 340.
(1) مقدمة الخصائص: 1/ 61.

لقد حظى الرجل عند بنى بويه عن طريق شيخه أبى عليٍّ الفارسيّ الذي كان من أصفياء البيت البويهي وخواصّه، لكنَّه لم يتول ديوان الإنشاء، وإنَّما ظل يعمل بالتدريس في بغداد التي ألقى فيها عصا التسيار إلى أن لَحِقَ بالرفيق الأعلى، يفهم ذلك من قول الخطيب البغدادي: «سكن بغداد ودرس بها العلم إلى أن مات»[1]. ولو أن ابن جنِّي قد عمل في ديوان الإنشاء لنص على ذلك الخطيب البغدادي وغيره من المؤرخين المتقدمين، ولترك لنا ابن جنِّي كتابًا في الإنشاء كما ترك كثير من تولوا هذا المنصب الخطير.

والأثر الإنشائي الوحيد الذي يدخل في ضمن النثر الفني هو خطبة النّكاح التي نقلها ياقوت من خط ابن جنِّي، وحفظها كاملة في كتابه العظيم، ومطلعها: «الحمد لله فاطر السماء والأرض، مالك الإبرام والنقض، ذي العِزَّة والعلاء، والعظمة والكبرياء، مبتدع الخلق على غير مثال، والمشهود بحقيقته في كل حال، الذي ملأت حكمته القلوب نورًا، فاستودع علم الأشياء كتابًا مسطورًا...».[2]

والخطبة تشغل صفحتين كاملتين من معجم الأدباء فليرجع إليها من شاء، حيث يجد فيها خصائص أسلوب ابن جنِّي سافرة دون قناع، لتكتحل عينه برؤية السجع والإطناب والطِبَاق والمقابلة والمزاوجة التي جاءت عفوًا دون تكلُّف، والتي لم توهن من العبارة مطلقًا، بل ظلت لغته كعادته محافظة على قوتها وجزالتها ورصانتها.

(2) تاريخ بغداد: 11/ 311.
(3) معجم الأدباء: 3/ 467، 468.

obeikandl.com

# مذاهبه الفكريَّة

لا شكَّ أنَّ لكل عالم منحى فكريًّا معينًا، يولى وجهه شطره، ويترسَّم معالمه في كلِّ الاتجاهات، وانضواء العالم تحت لواء تيار معين تتعاون عليه عوامل مختلفة تجليها مواضعات الزمان والمكان والتكوين الفكريّ للعالم، غير أنَّ المدقق يستطيع أنْ يلمح خيطًا دقيقًا يجمع سلك الاتجاهات جميعًا سياسية كانت أم عقدية أم فقهية أم نحوية.

والخيط الدقيق الذي نلمحه في موقف صاحبنا من هذه الاتجاهات الفكرية هو ميله إلى «**الحريَّة الفكريَّة**»؛ فابن جنِّي من أنصار الفكر الحُرِّ الذي يأبَى التقليد أو الانسياق الأعمى وراء الآراء، نعم إنَّه يقدِّر السلف كل التقدير، ولكنَّ هذا التقدير لا يتحول إلى وثاق يحجِّم رؤيته، ويكبِّل إرادته الحرة، ويغتال شلالات الإبداع والبكارة في نفسه، ويجعل منه تابعًا يسبِّح بحمد الآخرين، الذين لا يتنفس إلَّا من رئاتهم، ولا يتغنى إلاّ بحناجرهم.

ومن ثَمَّ وجدنا ابن جنِّي يترسَّم منهج كلَّ فرقة أو مذهب يدعو إلى حرية التفكير، وإلى التجديد المتزن، وإلى الثورة على قوى الرجعية والجمود.

* **فمن الناحية العقديَّة:** نجد ابن جنِّي مُعْتزليًّا من الطراز الأول، ومعلوم أنَّ المعتزلة هم حملة لواء الحرية الفكريَّة في فكرنا الإسلامي، فقد «كان ظهور المعتزلة يمثِّل الاتحاد التحرري الصاعد في التفكير الإسلاميّ، وكانت عقليتهم التي نمت في ظلال ذلك المزيج الهائل من الثقافات العقليّة المختلفة مؤذنة بقيام مرحلة ثقافيَّة جديدة تتسم بالعمق والخصوبة وتمجيد العقل والاعتزاز بحرية التفكير». (1)

ولذا نجد طائفة ضخمة من علماء العربيَّة يجنحون إلى هذا المذهب منهم: الجاحظ، والنَّظَّام، وأبو عليّ الفارسيّ، وأبو سعيد السيرافي، والشريف المرتضَى، والرُّمَّاني، والقاضي عبد الجبار، والزَّمخشري وغيرهم كثير.

وقد نضح الفكر الاعتزالي على رؤية ابن جنِّي بجلاءٍ شديد من ذلك:

---

(1) أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجريّ، د. عبد الحكيم بلبع، ص154.

(1) في خطبة كتابه (الخصائص) نجد قوله: «الحمد لله الواحد العدل القديم».[1] وكلمة «الواحد العدل» تدل على انتمائه إلى المعتزلة؛ الذين يسمُّون بأهل العدل والتوحيد[2].

(2) ما ذكره في باب ما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينيَّة؛ إنَّما هو تفسير لآيات على مقتضى مذهب المعتزلة الذين يجنحون إلى تأويل كل ما يُشتمَّ منه رائحة التشبيه لله بالحوادث، نجد مثلاً قوله في لهجةٍ شديدة موجهة إلى من يجنحون إلى التفويض مؤمنين بالظاهر: «فأمَّا قول من طغى به جهله، وغلبت عليه شقوته حتى قال في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم:42] إنَّه أراد به عضو القديم، وإنَّما جوهر كهذه الجوهر الشاغلة للأماكن، وإنَّها ذات شَعْر، وكذا وكذا مما تتايعوا في شناعته، وركسوا في غوايته، فأمرٌ نحمد الله على أن نزَّهنا عن الإلمام بحراه، وإنَّما الساق هنا يراد بها شدة الأمر كقولهم: قد قامت الحرب على ساق».[3].

وقد قام بتأويل آيات كثيرة على هذا النسق موافقًا المعتزلة الذين اتجهوا هذا المتجه من أجل «نفى التشبيه عن الله في كل وجه: جهةً ومكانًا وصورةً وجسمًا وتحيزًا وانتقالًا وزوالًا وتغيرًا وتأثرًا، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها، وسمُّوا هذا النمط توحيدًا».[4]

* **ومن الناحية السياسيَّة:** نجد ابن جنِّي يميل إلى التشيُّع، والشيعة فرقة دينيَّة إلا أنَّها قامت أصلًا نتيجة لصراعات سياسيَّة معروفة إبان الفتنة الكبرى، والعلاقة جد وثيقة بين الشيعة والمعتزلة حتى قال ميتز: «إنَّ الشيعة هم ورثة المعتزلة، ولا بدَّ أن تكون قلة اعتداد المعتزلة بالأخبار المأثورة مما لاءم أغراض الشيعة»،[5] وإذا تغاضينا عن كلمة (ورثة) وما

---

(1) الخصائص: 1/ 1.
(2) الملل والنحل؛ للشهرستاني (بهامش الفِصَل): 1/ 54.
(3) الخصائص: 3/ 254، والآية (42) من سورة القلم، وانظر: الكشاف: 4/ 593 لتجد هذا التفسير الاعتزالي.
(4) الملل والنحل: 1/ 55.
(1) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجريّ: 1/ 106.

توحى به من انتهاء الاعتزال ليخلفه التشيُّع وهي فكرة خاطئة جملةً وتفصيلًا، فإنَّنا نجد كلامه صحيحًا، حيث جمع عدد من الفضلاء بين المذهبين، لعلَّ من أبرزهم الصاحب بن عبَّاد؛ الذي عانق بين الفكرتين عناقًا رائعًا في قوله:[1]

لَوْ شُقَّ قَلْبِي لَرَأَوْا وَسْطَهُ سَطْرَين قَدْ خُطَّا بِلا كَاتِبِ

العَدْلُ وَالتَّوْحِيدُ في جَانِبٍ وَحُبُّ آلِ البَيْتِ في جَانِبِ

فلا غرو أنْ نجد ابن جنِّي شيعيًّا مُعْتزليًّا كشيخه أبي عليّ الفارسيّ؛ اللذين خدما معًا البيت البويهي وهم شيعة قلبًا وقالبًا.

كما كان ابن جنِّي من أصحاب الشريف الرضيّ؛ الذي مدحه ورثاه وصلَّى عليه ميتًا وهو من أعيان الشيعة، بل إنَّ ابن جنِّي قد نزل على الشريف أبي عليّ الجواني نقيب العلويين، وأملى عنده مسائل سمَّاها الواسطية،[2] وهو دليل على أنَّه كان مقربًا إليهم، حتى إنَّه لينزل عليهم مدة طويلة تكفى لتأليف كتاب.

ولذا نجد العاملي يُترجم له في أعيان الشيعة،[3] ومحمد باقر الموسوي في روضات الجنات،[4] وورد قسم من مؤلفاته في الذريعة إلى تصانيف الشيعة.[5]

ثمَّ إنَّ الفكر الشيعي ناضح بجلاء على آثاره، فهو لا يذكر الإمام عليّ بن أبى طالب إلا مشفوعًا بالصلاة؛ كقوله: «ومنه قول عليّ – صلوات الله عليه – : إلى الله أشكو عُجَري

---

(2) أمالي المرتضى: 1/ 400.

(3) إنباه الرواة: 2/ 340.

(4) أعيان الشيعة؛ للعاملي: 39/ 209.

(5) روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات؛ ص466.

(6) الذريعة إلى تصانيف الشيعة: 7/ 163.

وبُجَري»[1].. أو مشفوعًا بالسلام؛ كقوله: «قال أمير المؤمنين - عليه السلام - في بعض كلامه: وأقلقوا الأسياف في الأغماد قبل السلّة».[2]

بل يكتب ابن جنّي في ختام كتابه (المحتسب) رؤيا رآها بعض من يعتاد القراءة عليه؛ إذ رآه في مجلس وقد أتاه رجل له رواء ومنظر، فأعظمه ابن جنّي ثم قال له الرجل: أتمم كتاب الشواذ الذي عملته فإنَّه كتاب يصل إلينا، ثم نهض فسأل الرائي بعض الحاضرين: مَنْ هذا؟ فقالوا: علي بن أبى طالب عليه السلام».[3] وواضح أنَّ الأسلوب يعكس لغة الشيعة في الحديث عن عليّ بن أبى طالب، كما أنَّ الخبر ذو مِسْحَة شيعية ظاهرة، فلعله من موضوعات الشيعة، والله أعلم.

ولعلَّ في هذا ردًّا كافيًا على من زعم أنَّ ابن جنّي لم يكن شيعيًّا، وإنَّما كان يصانع الشيعة ويحطب في حبلهم ويأخذ أخذهم.[4]

ولست أدري ما الداعي إلى اتهام الرجل بالمداراة والنفاق وفكره مليء بتشيُّعه الظاهر، ولو كان له هوًى في مذهبٍ آخر لصدع برأيه غير مبال بازورار البيت البويهي، ولا مكترث بتلك المكانة القائمة على بالونة من النفاق.

* **ومن الناحية الفقهية:** فقد كان حنفيًّا، والأحناف هم أبطال الحرية في الفكر الإسلاميّ، وهم روَّاد مدرسة الاجتهاد والاستنباط والقياس في الفقه، وهم الذين لم يلغوا عقولهم أمام النصوص، بل أعملوا فيها فكرهم واستنبطوا منها أروع الأحكام التي توافق العقل ولا تصادم الشرع، ولا غرو فقد عاش إمامهم بالعراق، ذلك البلد الصاخب بكل التيارات

---

(1) الخصائص: 2/ 137.
(2) الفسر: 1/ 248.
(3) المحتسب: 2/ 277 بذيل النسخة، معجم الأدباء: 3/ 480.
(4) مقدمة الخصائص: 1/ 39، مقدمة سر صناعة الإعراب (ط. الحلبي): 1/ 34، ابن جنّي النحويّ، ص58.

الفكريَّة، والذي دارت على أرضه رَحى معارك فكريَّة ضروس سقطت على آثارها قمم، واستطالت قامات أُخر.

ولذا لم يتردد ابن جنِّي في اتِّباع مذهب الإمام أبى حنيفة الذي سهَّل له طريق الاجتهاد في النص وفتح أمامه باب التجديد، وقد اعترف ابن جنِّي بأنَّ كتب الأحناف هي التي عبَّدت للنحاة طريق الاجتهاد والاستنباط قائلًا: «وكذلك كتب محمد بن الحسن – رحمه الله – انتزع أصحابنا منها العلل، لأنَّهم يجدونها منثورة في أثناء كلامه، فيجمع بعضها إلى بعض بالملاطفة والرفق». (1)

وليس أدلّ على انتمائه لهذا المذهب من أنَّه عقد رسالة على مسألة من كلام الإمام محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة في كتابه (الأيْمان)؛ وهي: «قال محمد بن الحسن: إنْ قال: أيُّ عبيدي ضربك فهو حُرٌّ فضربه جميعهم عُتقوا كلهم، ولو قال: أيُّ عبيدي ضربته فهو حُرٌّ فضرب واحدًا من عبيده عُتق ذلك العبد، فإنْ ضرب غيره من بعده منهم لم يُعتق غير الأول وحده». (2)

* **ومن الناحية النحوية:** كثُر الخلاف حول مذهبة النحوي؛ وقد عقد الدكتور فاضل السامرائي فصلًا شافيًا في رسالته التي عنى فيها بابن جنِّي نحويًّا، وسرد في ذلك الفصل خمسًا وخمسين مسألة، مستدلاً على أنَّه بصريُّ المذهب، وليس كوفيًّا ولا بغداديًّا. (3)

**أقول:** على الرغم من اتِّباع ابن جنِّي مذهب أهل البصرة فإنَّ الحريَّة الفكريَّة التي شرب من كأسها حتى الثّمالة تأبى عليه أن يكون مذهب البصريين غُلًّا في عنقه، ولا قيدًا في فكره، ولا حائلًا دون التطلع إلى آراء الآخرين أيًّا كانوا، فهو مع الحق، والحق أحق أن يُتَّبع أينما حَلَّ وصقع، ففي مسألة تحريك الحرف الثاني الساكن إذا كان حلقيًا نحو البحر والصخر يقول:

---

(1) الخصائص: 1/ 164.

(2) انظر: أبو على الفارسيّ؛ د. عبد الفتاح شلبي، ص104، وقد ذكرها بروكلمان: 2/ 249 وقال: إنَّها توجد بالفاتيكان.

(3) ابن جنِّي النحوي، ص245–290.

«ومذهب الكوفيين فيه أنَّه يحرّك الثاني لكونه حرفًا حلقيًا، فيجيزون فيه الفتح وإن لم يسمعوه كالبَحْر والبَحَر، والصَخْر والصَخَر، وما أرى القول من بعد إلاّ معهم، والحق إلّا في أيديهم».[1]

وفى المسألة نفسها يقول في موضعٍ آخر: «ولا قرابة بيني وبين البصريين، لكنَّها بيني وبين الحق والحمد لله».[2].

إنَّه الفكر الحر الذي لا يعرف التعصب، ذلك الداء المقيت الذي يلقى غماماتٍ كثيفةً على عين صاحبه، فإذا به ينكر الشمس في ضُحاها، والقمر إذا تلاها، وإنه التجديد الذي يأبى صاحبه أن يظل حبيس آراء القدماء على فضلهم، وإنَّما هم رجال، ونحن رجال، ومتى كان المفكِّر طليق العقل من عبودية المذهب، بريئًا من التعصب، فاتحًا عقله وقلبه لكل جديد فهو مفكِّر حيٌّ بلا جدال، وفكره جديرٌ بأن يحرِّك المياه الآسنة والبحيرات المتعفنة بما أُلقي فيها من قمامات فكرية، لتجعلها أكثر حيوية وحركة وتجديدًا.

(1) المحتسب في توجيه شواذ القراءات: 1/ 84.
(2) المحتسب: 1/ 167.

obeikandl.com

# وفاتـه

وبعد رحلة قوامها الجد والعناء، وثمرتها الإفادة والعطاء؛ ذلك العطاء الممتد بلا حدود كان لا بدَّ من أن تتوقف أقدام هذا الرَّحالة عن السعي ليلقى المصير المحتوم الذي هو غاية كل حيّ، وقد أجمعت المصادر على أنَّه تُوفِّي ببغداد يوم الجمعة لليلتين بقيتا من صفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة في خلافه القادر، وأنَّه دُفن بالشوينزي من مقابر بغداد بالقرب من قبر شيخه أبى على الفارسيّ.

ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا ابن الأثير الذي قال: ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة... وفيها تُوفِّي عثمان بن جنِّي النحويّ مصنّف اللُّمَع وغيرها ببغداد،[1] ونقله عنه أيضًا أبو الفداء في المختصر[2]. ولا شك أنَّ ابن الأثير الذي عاش في القرن السابع وهو ناقل يقينًا قد سها في النقل، أو التبست عليه قراءة التاريخ، أو نقله من نسخةٍ محرَّفة، لعل له عذرًا وأنت تلوم، ثم اتَّبعه أبو الفداء حذوك النعل بالنعل.

وقد تولَّى الصلاة عليه تلميذه النجيب الشريف الرضيّ، ذلك الشاعر الوفيُّ الذي رثى أستاذه بقصيدةٍ عامرة بالتفجُّع ملأى بالأنين والعبرات على فَقْدِ الرجل والأستاذ والصديق والعالِم والأديب جميعًا، وقد افتتحها بقوله:[3]

**أَلا يَا لَقَوْمِي لِلْخُطُوبِ الطَّوَارِقِ وَلِلْعَظْمِ يُرْمَى كُلَّ يَوْمٍ بِعَارِقِ**

**وَلِلدَّهْرِ يُعْرِي جَانِبِي مِنْ أَقَارِبِي وَيَقْطَعُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الأَصَادِقِ**

وفيها:

**لِتَبْكِ أَبَا الفَتْحِ العُيُونَ بِدَمْعِهَا وَأَلْسُنُنَا مِنْ بَعْدِهَا بِالمَنَاطِقِ**

---

(1) الكامل في التاريخ: 9/ 179.

(2) المختصر في أخبار البشر: 2/ 136.

(3) ديوان الشريف الرضى: 2/ 63 وما بعدها.

شَـقِيقِي إِذَا الْتَـاثَ الـصَّدِيقُ وَأَعْرَضَـتْ ... خَلائِـقُ قَـوْمِي جَانِبًـا عَـنْ خَلائِقِـي
كَـأَنَّ جَنَـانِي يَـوْمَ وَافَـى نَعِيُّـهُ ... فَـرَىً أَدِيـمٍ بَـيْنَ أَيْـدِى الخَوَالِـقِ
فَمَـنْ لأَوَابِـي القَـوْلِ يَبْلُـو عِرَاكَهَـا ... وَيَحْـذِفُهَا حَـذْفَ النِّبَـالِ المَـوَارِقِ
إِذَا صَـاحَ في أَعْقَابِهَـا أَطْـرَدَتْ لَـهُ ... ثَـوَانِيَ بِالأَعْنَـاقِ طَـرْدَ الوَسَـايِقِ
وَمَـنْ لِلْمَعَـانِي في الأَكِمَّـةِ أُلْقِيَـتْ ... إِلَـى بَـاقِرٍ غَيْـبِ المَعَـانِي وَفَـاتِقِ
تَـسَنَّمَ أَعْلَـى طَوْدِهَـا غَيْـرَ عَـاثِرٍ ... وَجَـاوَزَ أَقْـصَى دَحْـضِهَا غَيْـرَ زَالِـقِ
طَـوَى مِنْـهُ بَطْـنُ الأَرْضِ مَـا تَـسْتَعِيدُهُ ... عَلَـى الـدَّهْرِ مَنْـشُورًا بُطُـونُ المَهَـارِقِ
مَـضَى طَيِّـبَ الأَرْدَانِ يَـأْرَجُ ذِكْـرُهُ ... أَرِيـجَ الـصَّبَا تَنْـدَى لِعِـرْنِينِ نَاشِـقِ

إلى آخر ما قال الشريف في رثاء أبى الفتح الذي فتح للغة والأدب ممالك مجهولة، وراض اللغة رياضة الحاذق؛ فدنا له قصيُّها، ودان له عَصِيُّها، وذلَّل أوابدها، وملك فرائدها، فرحمه الله رحمة واسعة.

obeikandl.com

# المبحث الثاني: مكوِّنات شخصيَّته النقديَّة

## * توطئة:

يكاد يُجْمِع النقاد على أنَّ مَلَكَةَ النقد والقدرة على تمييز الجيِّد من الرديء إنَّما تطير بجناحين، أو تقوم على ساقين هما: الموهبة والثقافة.

أمَّا عن الموهبة؛ فهي تلك القدرة الفطريَّة على النقد، إذ لا بدَّ أن يولد الناقد ولديه الاستعداد لممارسة النقد، ذلك الاستعداد الذي يقوم على الذوق المُرْهف والحسِّ الفنان، وسرعة التأثر والانفعال بالعمل الأدبيّ، وقدرة اللمح الخاطفة للعيب ومعرفة حقيقته، وهي قُدرة فطريَّة لا دخل للمرء فيها، وإنَّما هو الذي ينمِّيها، فقد يوجد العالِم النِّحْرِير الذي هضم ألوانًا من الثقافات، والقارئ المتبحِّر الذي أتى على كل طارف وتليد في العربية، ولكنَّه يقف عاجزًا أمام النصّ، لا يقدر على اقتحامه، ولا يتمكَّن من المغامرة بالسفر في عالمه.

إنَّه راوية أو زاملة شعر من هؤلاء الذين قال عنهم مروان أبى حفصة:[1]

**زَوَامِلُ لِلأَشْعَارِ لا عِلْمَ عِنْدَهُمْ بِجَيِّدِهَا إِلَّا كَعِلْمِ الأَبَاعِرِ**

**لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِى البَعِيرُ إِذَا غَدَا بِأَوْسَاقِهِ أَوْ رَاحَ مَا في الغَرَائِرِ**

وقد أشار شيخ البلاغيين عبد القاهر إلى أنَّ هذا الذوق ليس كسبًا ولا علمًا وإنَّما هو فطرة وجِبِلَّة بحيث لا يمكن تعليمه لمن غاض فيه ماء القريحة والموهبة، حيث يقول عن هؤلاء المحرومين من الذوق: «فليس الداء فيه بالهيِّن، ولا هو بحيث إذا رُمْت العلاج منه وجدت الإمكان فيه مع كل أحد مُسْعِفًا، والسعي مُنْجِحًا، لأنَّ المزايا التي تحتاج أنْ تعلمهم مكانها، وتصور لهم شأنها أمور خفيَّة ومعانٍ روحيَّة، أنت لا تستطيع أن تنبِّه السامع لها، وتحدث له علمًا بها، حتى يكون مُهَيَّأً لإدراكها، وتكون فيه طبيعة قابلة لها، ويكون له ذوق وقريحة يجد لها

(1) شعر مروان بن أبى حفصة؛ ص58.

في نفسه إحساسًا بأنَّ من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيهما المزية على الجملة، ومَنْ إذا تصفح الكلام وتدبَّر الشعر فرَّق بين موقع شيء منها وشيء»[1].

فهذا التهيُّؤ وتلك الطبيعة إنَّما هي الفطرة والموهبة التي يولد بها الناقد ولا تُكتسب، والتي تمنحه نورًا كأنَّه الوحى أو الإلهام يسترشد به في اقتحامه غيابة النص، وهو آمن من الضلال في دروبه – وقد فطن ابنُ جنِّي إلى أهمية هذه الموهبة التي هي وحيٌّ من الله تعالى، فإذا هبط ضاءت جوانب النص، ولاحت منه رؤى كانت من قبل محجَّبة وراء أقنعة النص، وإن انقطع غامت الرؤية وانقطع الاتصال؛ حيث يقول: «وحدَّثني أبو عليّ قال: قلت لأبي عبد الله البصريّ: أنا أعجب من هذا الخاطر في حضوره تارةً ومَغيبه أخرى، وهذا يدل على أنَّه من عند الله، فقال: نعم هو من عند الله، إلَّا أنَّه لا بدَّ من تقديم النظر، ألا ترى أنَّ حامدًا البقَّال لا يعرض له.

ومن طريف الحديث هذا الخاطر أنَّني كنت منذ زمانٍ طويل رأيت رأيًا جمعت فيه بين معنى آية ومعنى قول الشاعر:

**وَكُنْتُ أَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ مُعْتَدِلًا فَصِرْتُ أَمْشِي عَلَى أُخْرَى مِنَ الشَّجَرِ**

ولم أُثْبِتْ حينئذ شرح حال الجمع بينهما؛ ثقةً بحضوره متى استحضرته، ثم إنِّي الآن – وقد مضى لي سنون – أعانِّ الخاطر وأستَثْمِدُه، وأفانيه وأتودَدُه، على أنْ يسمح لي بما كان أرانيه من الجمع بين معنى الآية والبيت، وهو معتاصٌ متأبٍّ، وضنينٌ به غير مُعْطٍ»[2].

وفى رَدِّ أبي عبد الله البصري على أبي عليّ إشارة الى الجناح الثاني من جناحيْ المَلَكَة النقديَّة وهو الثقافة؛ التي لا تتمُّ إلا بمخالطة كلام العرب، وطول الممارسة الفاهمة، وإدامة النظر في الدقيق والجليل من أمر اللغة، وقوام ذلك فِهْم اللغة متنًا ونحوًا وصرفًا، وقراءة شعر الشعراء في شتى العصور قراءة فاهمة غير قانعة بالسطح، بل تائقة إلى الغوص في الأعماق، ثم التمرُّس

(1) دلائل الإعجاز؛ تحقيق: محمود شاكر، ص547.

(2) الخصائص: 1/ 208، والبيت الذي استشهد به نسبه ابن الأعرابي لعبدٍ أسود من عبيد بجيلة، ذكر ذلك صاحب الأمالي الذي أورده مع ثلاثة أبيات أخرى [الأمالي: 2/ 183].

بنقد السابقين، ومعرفة كيفية محاورة النص، وكيف ترد الأسئلة؟ وكيف يكون الجواب؟ ومن قديم قال ابن سلام الجُمَحِيّ: «وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأُذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان»، ثم يقول: «وإنَّ كثرة المُدَارسة لتُعْدي على العلم به، فكذلك الشعر يعلمه أهل العلم به».[1]

وقد كان نصيب ناقدنا من هذين الجناحين موفورًا، حيث فُطِر على ذكاء نادر، وقدرة غير عادية على الفهم والاقتحام والمغامرة، ورهافة حسٍّ بمعاني الكلام، بحيث يتحير قارئ فكره من سيل الأسئلة والأجوبة التي يوردها الرجل دون أن تجول لنا بخاطر.

وأمَّا عن ثقافته؛ فحدث عنها ولا حرج فهو «القطب في لسان العرب، وإليه انتهت الرياسة في الأدب»،[2] وهم يعنون بالأدب كل ما يتعلق بأمر اللغة من تلك العلوم المتشعِّبة التي خاض ناقدنا غمارها بقوةٍ واقتدار، بحيث يمكن أن يوصف بأنَّه دائرة من دوائر المعارف اللغويَّة.

وبعد حيازة الموهبة والثقافة تأتي عوامل أخرى تختلف من ناقدٍ إلى ناقد تؤثر في صقل الموهبة، وتلوينها بلون معين، وتزيد من قدرة الأديب على ممارسة النقد الفاهم أو الفهم الناقد.

---

(1) طبقات فحول الشعراء: 1/ 5 – 7.

(2) يتيمة الدهر: 1/ 137.

obeikandl.com

# أولاً: الأصل الروميّ

مهما تباينت آراء اللغويين والمؤرِّخين حول كلمة (جِنِّي) ما أصلها؟ وَمِمَّ عُرِّبَتْ؟ وما معناها؟[1] فإنَّ الثابت الذي لا شكَّ فيه أنَّ ابن جنِّي ينحدر من أصلٍ رومي، فقد كان أبوه جنديًّا روميًّا، ثم وقع في الأسر، وآل أمره إلى سليمان بن فهد الأزديّ.

وقد أعرب ابن جنِّي عن هذا الأصل بما لا يدع مجالًا للشك حيث قال:[2]

فَإِنْ أُصْبِحْ بِلا نَسَبٍ ... فَعِلْمِي في الوَرَى نَسَبِي

عَلَى أَنِّي أَؤُولُ إِلَى ... قُرُومٍ سَادَةٍ نُجُبِ

قَيَاصِرَةٍ إِذَا نَطَقُوا ... أَرَمَّ الدَّهْرُ ذُو الخُطَبِ

أُوْلاكَ دَعَا النَّبِيُّ لَهُمْ ... كَفَى شَرَفًا دُعَاءُ نَبِي

فهو يُقر بانتمائه إلى الروم، أولئك السادة النجباء، القياصرة الخطباء، الذين ارتدوا حُلَلًا من المجد بدعاء النبي ﷺ لهم، حيث إنَّه لما كتب إلى كسرى، فمزَّق كتابه، قال: «**مزَّق الله مُلكه**».. ولما كتب إلى قيصر فطواه، ورفعه وأحسن الردِّ، قال: «**ثبَّت الله مُلكه**»[3].

وهنا نحاول الإجابة عن سؤالين؛ أولهما: هل تُشْتَمُّ من هذه الأبيات رائحة الشعوبيَّة؟

وثانيهما: ما مدى تأثره بالعقلية اليونانيَّة في مضمار النقد الأدبيّ؟

## * هل تُشْتَمُّ منه رائحة الشعوبيَّة؟

الحقُّ أنَّ ابن جنِّي براء من تلك الدعوى اللخناء كلَّ البراءة، وفكره كان عربيًّا حتى النُّخاع، ومؤلفاته تنطق بالحب المتدفق للعرب؛ حُبًّا لا تشوبه شائبة، وأدلة ذلك ما يلي:

---

(1) انظر: مقدمة الخصائص: 1/ 10، ابن جني: أبو الفتح عثمان – مقال المقتطف، ص153، تاريخ الأدب العربي؛ كارل بروكلمان: 2/ 244، ظهر الإسلام؛ أحمد أمين: 1/ 68، يوميات العقاد: 2/ 328.

(2) معجم الأدباء: 3/ 462، وفيات الأعيان: 3/ 246، نزهة الألباء؛ ص244، إنباه الرواة 2/ 335. أرمَّ: سكت، ورُويت أزمَّ (بالزاي) بمعنى سكت أيضًا؛ كما في «حاشية البغدادي على شرح بانت سعاد»: 2/ 201، ورُويت أرمّوا بمعنى: أسكتوا؛ كما في «البداية والنهاية»: 11/ 354.

(3) انظر: فتح الباري؛ ط. السلفية: 1/ 58.

(1) أعلن ابن جنّي ولاءه للعرب مطلقًا، حيث كان يفتخر بأنَّه أزدي بالولاء، ولذا نراه يفخر بالعرب فخرًا يعادل إنْ لم يزد على فخر العرب بأنفسهم.

يقول في الذَّبِّ عن العرب وعن ذكائهم: «فإن قلت: ومن أين تعلم أنَّ العرب قد راعت هذا الأمر واستشفَّتْه، وعُنيت بأحوال وتتبعته، حتى تحامت هذا الموضع الذي نسبتَه إليها، وزعمتَه مرادًا لها، وما أنكرت أن يكون القوم أجفى طباعًا وأيبس طينًا من أن يصلوا من النظر إلى هذا القدر اللطيف الدقيق، الذي لا يصح لذي الرقة منَّا أنْ يتصوره، إلا بعد أن توضّح له أنحاؤه، بل أن تشرَّح له أعضاؤه؟

قيل له: هيهات! ما أبعدك عن تصور أحوالهم، وبُعد أغراضهم، ولُطف أسرارهم».[1]

ويقول في موضعٍ آخر مادحًا العرب: «لأنَّ الله سبحانه إنَّما هداهم لذلك، وَوَقَفَهم عليه؛ لأنَّ في طباعهم قبولًا له، وانطواءً على صحة الوضع فيه، لأنَّهم مع ما قدَّمناه من ذِكر كونهم عليه في أول الكتاب من لُطف الحس وصفائه، ونصاعة جوهر الفكر ونقائه، لم يُؤْتَوْا هذه اللغة الشريفة، المنقادة الكريمة إلا ونفوسهم قابلة لها، مُحِسَّة لقوة الصنعة فيها، معترفة بقدر النعمة عليهم بما وهب لهم منها».[2]

وهي لغة كما نرى تَشِي بنهر الحب المتدفق للعرب الذين وُهِبُوا من صفاء الفكر وتوقد الذهن وجودة القريحة أعظم مقدار.

(2) أعلن ابن جنّي شغفه بالعربية، التي شرب من كأس محبتها حتى الثّمالة، فجرى حبها مجرى الدم في عروقه، وخامر كل ذرَّة من ذرَّات كيانه، استمع إلى قوله: «لو أحسَّت العجم بلُطف صناعة العرب في هذه اللغة وما فيها من الغموض والرِّقة والدِّقة لاعتذرت من اعترافها بلغتها فضلًا عن التقديم لها والتنويه منها».[3]

---

(1) الخصائص: 1/ 73.
(2) الخصائص: 1/ 240.
(3) الخصائص: 1/ 243.

وكأنَّه يُفاخر العجم بمن فيهم الروم بهذه اللغة الساحرة الشاعرة التي لا يعرف أسرارها إلا لطيف الحس مرهف الوجدان.

ولذا نجده في أبيات أخرى يفتخر بأنَّه من أهل الأدب؛ أي المعرفة بكل أسرار العربية وعلومها قائلاً:[1]

وَحُلْوِ شَمَائِلِ الأَدَبِ مُنِيفِ مَرَاتِبِ الحَسَبِ
أَخِي فَخْرٍ مَفَاخِرُهُ عَقَائِلُ عُقْلَةِ الأَدَبِ
لَهُ كَلَفٌ بِمَا كَلِفَتْ بِهِ العُلَمَاءُ مِ العَرَبِ
يَبِيتُ يُفَاتِشُ الأَنْقَابَ (م) عَنْ أَسْرَارِهَا الغُيُبِ

(3) أنَّ الأبيات التي فخر فيها ابن جنّي بأصله الرومي إنَّما يريد بها أن ينفي عن نفسه ضعة النسب فحسب، فهو يقول أنَّه إذا افتقد النسب العربيّ الصريح فليس ضائعًا ولا لقيطًا، وإنَّما له آباء شرفاء، وفى الأبيات نفسها يفتخر بعلمه الذي هو نسبه، وما علمه إلا لغة العرب، ويفتخر بدعاء النبي العربيّ لهم، وأين هذا الموقف من موقف ابن الروميّ أحد أبناء جلدته الذي شرب من كأس الشعوبية البغيضة، وتلفَّع بأسمال كراهية العرب حتى النخاع قائلا: [2]

قَدْ تُحْسِنُ الرُّومُ شِعْرًا مَا أَحْسَنَتْهُ الْعُرَيْبُ
يَا مُنْكِرَ المَجْدَ فِيهِمْ أَلَيْسَ مِنْهُمْ صُهَيْبُ؟

أو قوله: [3]

إِنْ لَمْ أَزُرْ مَلِكًا أُشْجِي الخُطُوبَ بِهِ فَلَمْ يَلِدْنِي أَبُو الأَمْلاكِ يُونَانُ
بَلْ إِنْ تَعَدَّتْ فَلَمْ أُحْسِنْ سِيَاسَتَهَا فَلَمْ يَلِدْنِي أَبُو السُّوَّاسِ سَاسَانُ

أو قوله: [1]

(1) معجم الأدباء: 3/ 470.
(2) ديوان ابن الرومي: 1/ 401.
(3) ديوان ابن الروميّ: 6/ 2425.

آبَائِيَ الـرُّومُ تُـوفِيلٌ وَتُـوفَلَـسٍ وَلَمْ يَلِـدْنِـي رَبْعِـيٌّ وَلا شَيْـثُ

بل أين هذا من قول أبي نُواس الذي طالما رفع عقيرته ببُغض العرب قائلًا: [2]

قَالُوا ذَكَرْتَ دِيَارَ الحَيِّ مِنْ أَسَدٍ لا دَرَّ دَرُّكَ قُلْ لِي: مَنْ بَنُو أَسَدِ؟

وَمَنْ تَمِيمٌ وَمَنْ قَيْسٌ وَإِخْوَتُهُمْ؟ لَيْسَ الأَعَارِيبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ أَحَدِ

ومن ثَمَّ فإننا لا نتردَّد لحظة واحدة في تبرئة ابن جنِّي من هذا الدنس الذي ولغ فيه كثير من ذوي الأصول الأعجميَّة، وفكر الرجل خير شاهد.

* * * * *

*** ما مدى تأثره بالثقافة اليونانية وتأثيرها عليه في مضمار النقد الأدبيّ؟**

إذا ثبت انتساب ابن جنِّي إلى الروم، تلك الأمة ذات الحضارة السامقة والعقلية المنظَّمة التي حملت لواء المنطق من قديم الزمن على يد فلاسفتها القدامى (سقراط وأفلاطون وأرسطو)، فالرجل تسري في عروقه تلك الدماء لا شك، ولكنْ هل تأثر بها أو لا؟

هنا نواجه رأيين متضادين، يحاول أولهما أنْ يُلغيَ تأثير الدم جملةً وتفصيلًا، ويحاول الثاني أن ينتسب كل فكرة عنده إلى ذلك الدم وحده؛ وكلا طرفيْ قصدِ الأمورِ ذميم.

فالدكتور محمد النويهي ينفى أي تأثير للجنس أو الدم على المفكر، وإنَّما التأثير للظروف الاجتماعية والثقافية وحدها؛ قائلًا: «إنَّ العلماء لا ينكرون أنَّ لكل جنس بشرى ميزات عقلية مستقلة، إنَّما الذي ينكرونه أن يقول قائل: إن سبب ذلك هو الوراثة البيولوجية، والذي يرجِّحونه هو أنَّه قد سببته عوامل البيئة التي أشرنا إليها، فهو شيء مكتسب لا شيء موروث، بحيث لو جئت بالطفل الزنجي وأحسنت تربيته وتعليمه، وأحطته بالظروف الاجتماعية

(1) ديوان ابن الروميّ: 1/ 401.
(2) ديوان أبي نواس؛ ص46.

الراقية لنشأ مشابهًا لمن حوله، ولم تجد فرْقًا بينه وبين غيره، اللهم إلا الفروق الشخصية التي تفصل فردًا عن فرد كائنًا ما كان جنسه»[1].

والذي لا شكَّ فيه أنَّ للتثقيف والتهذيب دورًا في توجيه الأديب، ولكنَّ الأصل الذي هو دمٌ سار في العروق له دور كذلك، فإنَّ الطبع يغلب التطبُّع، وقد رَوَوْا: أنَّ أعرابيًّا ربَّى جَرْو ذئب حتى شبَّ، وظنَّ أنَّه يكون أغنى عنه من الكلب، وأقوى على الذَّبِّ عن الماشية، فلما قَوِيَ وَثَبَ على شاةٍ فقتلها وأكل منها، فقال الأعرابيُّ:

وُلِدْتَ بِقَفْرَةٍ وَنَشَأْتَ عِنْدِي ... فَمَا أَدْرَاكَ أَنَّ أَبَاكَ ذِيبُ؟

إِذَا كَانَ الطِّبَاعُ طِبَاعَ سُوءٍ ... فَلَيْسَ بِنَافِعٍ فِيهَا الأَدِيبُ[2]

ومن قديم قال كُثَيِّر عَزَّة:[3]

وَمَنْ يَبْتَدِعْ مَا لَيْسَ مِنْ خِيمِ نَفْسِهِ ... يَدَعْهُ وَيَغْلِبْهُ عَلَى النَّفْسِ خِيمُهَا

فللطبْعِ دوره الذي لا شكَّ فيه، وإن كان التعليمُ خاصَّة مع الإنسان يقلِّص دوره إلى حَدٍّ كبير.

وأما الرأي الآخر فهو رأي الدكتور محمد مندور؛ والذي يحاول ضمنًا نسبة كل فكر عربي إلى أصلٍ غير عربي، فعندما أراد التعليق على تفسير ابن جنِّي قول المُتنبِّي:

تَبُلُّ خَدِّي كُلَّمَا ابْتَسَمَتْ ... مِنْ مَطَرٍ بَرْقُهُ ثَنَايَاهَا

يقول – بعد عرضه تحليلات النقاد القدامى للبيت –: «وفي البيت السابق بالذات يُخيل إلينا أن ابن جنِّي اليوناني الأصل، ربما يكون قد استوحاه من كلمة (هوميروس) الشهيرة في

(1) ثقافة الناقد الأدبيّ؛ ص181، 182.

(2) عيون الأخبار؛ لابن قتيبة: 2/ 5 (بتصرف).

(3) ديوان كُثَيِّر عَزَّة؛ ص148 برواية (ما ليس من سوس...)؛ وهو في عيون الأخبار: 2/ 5، لسان العرب (خيم): 2/ 1309؛ وهو برواية مختلفة يسيرًا منسوب إلى الأعور الشنيّ في الوساطة؛ ص200، ونُسب إلى حاتم الطائي في شرح ديوان الحماسة؛ للمرزوقي؛ ص1712 حماسية (756).

الإلياذة، عندما قال عن أندروماك: (إنَّها تلقت من زوجِها ولـدَها بابتـسامة تُبلِّلهـا الـدموع)، هذا ممكن ولكنَّنا لا نجزم بشيء».[1]

وهذا إغراق في دعوى التأثر لا مسوِّغ له قطعًا، فإنَّ وراءه هدفًا خبيثًا قوامه تجريد العـرب من الابتكار، حيث ذاعت فكره بائرة تولَّى كبرها المستشرقون تهدف إلى نسبة كل علم عربي إلى أصلٍ أوربي؛ فالمستشرق (ديلاسى أوليرى) يقول عن وضع أبى الأسود الـدؤلي علـم النحـو: «وبدأ يعمل نحو اللغة العربية ومعجمها، ويبدو أنَّه في علمه هذا قد تـأثر بمنطـق أرسـطو ولم يتأثر بالنحاة الإغريق».[2]

بل يقول عن الفقه الإسلامي: «وفى العـراق حـول البـصرة كانـت الآثـار الأولى للنظريـة الفقهية التي يظهـر فيهـا أثـر القـانون الرومـاني، والنظـرات الفلـسفية التـي قبلهـا المحـامون الرومان».[3]

وإذا كانت هذه النَّعرة لا تُستغرب من مستشرق متعصب مغرم بـازدراء العـرب وتفـسير القرآن الكريم تفسيرًا مغرضًا، وَكَلِفٍ بتمجيد العناصر غير الإسلاميَّة في تاريخ الثقافة العربية مثل الأخطل أو حُنَيْن بن إسحاق، والشيء من معدنه لا يُستغرب، فإننا نُنكر هذا كل الإنكـار على الدكتور منـدور؛ الـذي هـو في نظـري بـريءٌ مـن هـذا الهـدف الخبيـث، ولكنَّـه أراد أن يستعرض العضلات الفكريـة، وأن يُـدِلّ بثقافتـه الغربيـة، رغـم يقيننـا أن معرفـة ابـن جنِّـي باليونانية كانت محدودة، وما كانت ترقى إلى فهم الإلياذة؛ التي لم يجر لها أي ذِكـر في كتبـه، بـل نظنُّ أنَّ الرجل ما سمع بها ولا بصاحبها.

* والذي يراه الباحث أنَّ هناك عاملين يقرّبـان ابـن جنِّـي إلى الفكـر اليونـانيّ بعـض التقريب:

---

(1) النقد المنهجي عند العرب؛ ص235.
(2) مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب؛ ص219.
(3) مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب؛ ص220.

**الأول:** أن ابن جنِّي قد اطَّلع على بعض الثقافات غير العربية، يمكننا استفادة ذلك مما رواه ابن ماكولا؛ قال: «حكى لي إسماعيل بن المؤمل النحويّ أنَّ أبا الفتح كان يذكر أنَّ أباه كان فاضلاً بالرومية»[1]، يقول الأستاذ محمد على النجار: «وجنّى تكتب بالحروف اللاتينية مماثلة للفظ اليوناني (GENNAIUS) ومعناها: كريم، نبيل، جيد التفكير، عبقري، مخلص.. ومن هنا يبدو صدق تفسير ابن جنِّي لاسم أبيه».[2]

ومن ثَمَّ فقد نستفيد أنَّ ابن جنِّي كان مُطَّلعًا على اللغة اليونانية، وقد يكون عرف ذلك من خلال أبيه الذي كان يجيدها بلا شك، حيث عاش في بلاد الروم إلى سنِّ الجندية.

وفى الخصائص مواطن عِدَّة تدل على معرفةٍ ثاقبةٍ بالفارسية؛ حيث يقول في معرض الموازنة بين التقاء السواكن في العربية وغيرها: «ومن طريف حديث اجتماع السواكن شيء وإن كان في لغة العجم، فإنَّ طريق الحس موضع تتلاقى عليه طباع البشر، ويتحاكم إليه الأسود والأحمر؛ وذلك قولهم (آرْد) للدقيق و(ماسْت) للبن، فيجمعون بين ثلاثة سواكن، إلا أنني لم أر ذلك إلا فيما كان ساكنه الأول ألفًا، وذلك أنَّ الألف لما قاربت بضعفها وخفائها الحركة صارت (ماسْت) كأنَّها مست».[3]

هنا تبدو المعرفة الدقيقة والدراية العميقة باللغة الفارسية، تلك المعرفة التي أهَّلته للموازنة بين اللغتين، مع فطنته إلى وجود حسٍّ عالميّ وذوق عام يقف وراء استعمال اللغة، يشترك فيه البشر جميعًا.

وهذا وذاك يدلَّان بما لا يدع مجالًا للشك على أنَّ الرجل لم يكتف بتحصيل الثقافة العربية وحدها، بل نهل وعَلَّ من ينابع ثقافات أُخَر أفاءت على فكره ظلالًا من الآثار الأجنبية.

---

(1) الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب: 2/ 585.
(2) مقدمة الخصائص: 1/ 10.
(3) الخصائص: 1/ 91.

obeikandl.com

**الثاني:** من الثابت أنَّ الدم اليوناني يسري في عروق ابن جنِّي، والإنسان مهما ابتعد عن وطنه، ومهما اندمج في مجتمع آخر، ومهما أُشْرب قلبه حُبَّ لغة أخرى، فلن يستطيع التخلص نهائيًا من العامل الوراثي الساري في عروقه، يقول الأستاذ العقاد: «وما من شك في أنَّ الشاعر الذي تحدّر من أصل يوناني أيًّا كان مقرُّه غير الشاعر الذي تحدَّر من أصلٍ عربي أيًّا كان مقره».[1]

ومن ثَمَّ فإنَّنا نقول إنَّ الدم اليوناني الساري في عروق ابن جنِّي قد أكسبه خصائص التفكير اليوناني، ذلك التفكير الذي يقوم على تمجيد العقل، وحرية الفكر، وتفجير طاقات الجدل والفلسفة في عقل المفكر... وقد اتضح ذلك جيدًا في فكر ابن جنِّي القائم على الجدل والاحتجاج، وعلى النظرة الفلسفيَّة للموضوع، فتراه يحتجُّ احتجاجات عقلية محيرة للعقول، حتى تُحِس أنَّك أمام فيلسوف مجادل متمرِّس بكل أدوات المنطق، ولذا يكثُر من استخدام طريقة: (فإن قلتَ قلتُ)، حتى يقطع الطريق أمام خصمه، ويردّ عليه كل شُبهة قبل أن ينطق بها، بل ربما قبل أن تتولَّد في عقله، فإن صَحَّ تلقيب عالمٍ بأنَّه فيلسوف اللغة؛ فإن هذا اللقب أصدق ما يكون على ابن جنِّي.

ومن ثَمَّ فإنَّنا نردد قول الأستاذ أحمد أمين: «فابن الرومي وابن جنِّي وأمثالهما كانوا عَرَبَ المنشأ والمربى وكانوا رُومًا بعقلهم الموروث، فجمعوا بين مزايا العقل المطبوع والعقل المصنوع، وأنتجوا منها إنتاجًا صالحًا ذا طعم خاصّ».[2]

وليس معنى ذلك أنَّنا نفتح باب التأثر على مصراعيه - كما يريد الدكتور مندور - فإن الأثر اليوناني لم يتضح على ابن جنِّي إلَّا في طريقة تفكيره، وأسلوبه في الجدل، وسعيه وراء الحرية العقليَّة، وفتحه الباب أمام التجديد المبدع، وامتعاضه من الجمود الرديء والتقوقع في سراديب الماضي.

---

(1) ابن الروميّ حياته من شعره؛ ص332.
(2) ظهر الإسلام: 1/ 69.

أما فيما عدا ذلك فقد كانت ممارسته اللغويَّة عربيَّة خالصة في مادتها التي أُشْرِب قلبه حُبَّها، وانصهر فيها انصهارًا كاملاً كاد يُنسيه ما عداها.

obeikandl.com

## ثانيًا: التبحُّر في علوم العربيَّة

إذا صحَّ أنَّ النقد في أوضح صوره محاورة بين الناقد والنص، فلا بد أن تكون لغة الحوار مفهومة، ووسيلة الاتصال معلومة، ولولا ذلك لشاهت معالم الاتصال، وهام كل جانب في وادٍ من الضلال.

ومن ثَمَّ فإنَّ امتلاك أزمَّة اللغة، والاقتدار على أعنَّة البيان، من شأنه أن يكشف أمام الناقد كثيرًا من المعاني المخبوءة في زوايا النص، الدفينة في أعماقه، ثم بعد ذلك يحاول الناقد أن يحلِّق مع النص في آفاق الإبداع، وأن يَسْبَحَ مع المبدع في عوالم الوحي والرمز والإشارة.

إنَّ الفهم البصير للغة هو المرحلة الأولى التي تكشف النص كشفًا كليًّا ظاهرًا، ثم يدلِفُ الناقد من خلال ذلك الضوء الكاشف إلى دقائق الإبداع، ولولا هذا الضوء الذي منحته اللغة إيَّاه لسار وسط ظلمات متراكمة، وكان كفيلسوف أعمى يبحث عن قطة سوداء في حجرة مظلمة.

إنَّ الفنان الذي يُحب أن يتأمل في نقوش أبدعتها يد رسَّام على جدران حجرة لا بدَّ له من الضوء الكاشف الذي يُجلي له الحقائق، ثم يبدأ المرحلة الثانية؛ مرحلة التفرس في ملامح اللوحات والتأمل في جمالياتها.

ولعلَّ الخلط بين هاتين المرحلتين هو سبب الخصومة التي دارت رحاها بين اللغويين والنحاة من جهة، والنقاد والبلاغيين من جهة أخرى... إذ وجدنا من النقاد من يحمل على اللغويين والنحاة حملة شعواء، رافعًا عقيرته باتهامات غليظة؛ كفساد الذوق، وعدم القدرة على ممارسة النقد، فقد رُوي عن بعضهم أنَّه قال: «رآني البُحتريُّ ومعي دفتر شعر فقال: ما هذا؟ فقلت: شعر الشَّنْفَرَى، فقال: وإلى أين تمضي؟ فقلت: إلى أبي العباس (ثعلب) أقرؤه عليه، فقال: قد رأيتُ أبا عباسكم هذا منذ أيام عند ابن ثوابة، فما رأيته ناقدًا للشعر ولا مُمَيِّزًا

للألفاظ، ورأيته يستجيد شيئًا ويُنشده، وما هو بأفضل الشعر، فقلت له: أمَّا نقده وتمييزه فهذه صناعة أخرى، ولكنَّه أعرف الناس بإعرابه وغريبه».[1]

فقد اتفق الرجلان على سحب بساط النقد من تحت أقدام ثعلب، نعم أنَّه ربما لا يكون ناقدًا، ولكن ليس معنى ذلك أنَّ درايته باللغة لا قيمة لها في مضمار النقد، وليست مُعِينةً على ممارسته.

بل وجدنا من الشعراء من يرفع عقيرته في حق نحويّ يُدْعَى أبا جعفر فيقول:[2]

يَا أَبَا جَعْفَرٍ تَحَكَّمُ فِي الشِّعْرِ (م) وَمَا فِيكَ آلَةُ الحُكَّامِ

إِنَّ نَقْدَ الدِّينَارِ إِلَّا عَلَى الصَّيْرَفِ (م) صَعْبٌ فَكَيْفَ نَقْدُ الكَلامِ

قَدْ رَأَيْنَاكَ لَسْتَ تَفْرُقُ فِي الأَشْعَارِ (م) بَيْنَ الأَرْوَاحِ وَالأَجْسَامِ

فهذا خلطٌ بين المرحلتين: مرحلة الكشف اللغوي التي قد يقف عندها بعض الناس، ومرحلة التفرُّس في ملامح النص... وتلك مهمة الناقد التي لا تتمُّ إلا بعد المرحلة الأولى، وكأنَّه بناءٌ من طابقين لا يتم الثاني إلَّا بعد تمام الأول.

ومن ثَمَّ فإنَّنا «لا نود أن تجرفنا النظرة التي تذهب إلى أنَّ اللغويين جماعة لا يتوفرون على استبطان الشعر، واكتناه حقائقه ولمساته، وأنَّ ملاحظاتهم على الشعر لا تعدو أن تكون في مسائل لغوية بحتة، ذلك أنَّها – مع الاعتراف بما للنظرة النحويَّة واللغويَّة من دور في الصحة والخطأ – قد تجاوزت ذلك في كثير من الأحيان إلى كثير من المسائل الفنيَّة والنظرات الموضوعيَّة التي تتصل بالإبداع الشعريّ في المعاني والأفكار والصور والخيال والإيجاز والأطناب والذّكر والحذف، وما إلى ذلك من الأمور التي تتصل بالنواحي الأدبيَّة والبلاغيَّة والجماليَّة».[3]

(1) دلائل الإعجاز، ص253، المصون في الأدب؛ للعسكري، ص4.
(2) دلائل الإعجاز، 254، المصون في الأدب، ص12.
(3) القضايا الأدبية والفنية في شرح المرزوقي لديوان الحماسة؛ ص107، 108.

obeikandl.com

إنَّ المرفوض في عالم النقد حقًّا هو قوقعة النقد داخل سراديب اللغة، أو حبسه خلف قضبان النحو مع الاكتفاء بذلك، لأنَّ النقد إنما هو تحليق مع النص في آفاق الفن الموحى واللغة الرامزة، ولكنَّ اللغة والتبحر في علومها من أعظم ما يمنح الناقد ريشًا لجناحيه اللذين يدفعانه إلى الأمام، ولولاهما لظلَّ يسبح في بحار الظلام، ثم عاد لنا من رحلته غير الموفَّقة صفر اليدين، لأنَّه طار بلا جناحين.

ولذا وجدنا النقاد الفاهمين يؤكِّدون حتمية هذه المرحلة الكاشفة؛ يقول ابن قتيبة: «وكل علم محتاج إلى السماع؛ وأحوجه إلى ذلك علم الدِّين ثم الشعر؛ لِمَا فيه من الألفاظ الغريبة واللغات المختلفة، والكلام الوحشيّ، وأسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه... وأشباه ذلك لأنَّه لا يلحق بالذكاء والفطنة»،[1] فتلك إشارة إلى «حتمية الإلمام بالمصطلح الشعري الذي نريد التعامل معه، لأنَّ الشعر ليس بناء فنيًّا فحسب حتى يمكن أنْ نُعوِّل فيه على ثقافة الناقد الفنية وحدها، ولكنَّه بناء فنى ينحني على قيم معرفية تتصل بعلوم اللغة والأحياء والجغرافية، وغير أولئك من العلوم والفنون التي ينبغي أن يلمَّ بها الناقد إلى جوار ثقافته الفنية الأساس».[2]

فليس عجيبًا أنْ نؤمن بأن تضلُّع الناقد في علوم العربية من شأنه أن يمنحه شفرات النص، وأن يُعطيه مفاتيح المملكة الشعرية، فيغزو معاقلها الحصينة المليئة بألوانٍ من الغموض وطلاسم الرمز، وأن يمدَّ جناحيه بقوة دفع هائلة تمكِّنه من مواصلة التحليق في الآفاق، والغوص في الأعماق.

فإذا طبَّقنا ذلك على ابن جنِّي وجدناه من أولئك النوادر الذين راضوا اللغة حتى أسلست لهم قيادها، فدنا قصيُّها، ودان عصيُّها، حتى أصبحت في أيديهم ليِّنةً مطواعًا يصرفونها كيفما شاءوا، ولا غرْو فإنَّه «القطب في لسان العرب، وإليه انتهت الرياسة في الأدب»[3]، وإنَّه «من

(1) الشعر والشعراء: 1/ 82، 83.
(2) قضايا نقد الشعر في التراث العربيّ؛ د. محمد أحمد العزب: 1/ 335.
(3) يتيمة الدهر: 1/ 137.

أحذق أهل الأدب وأعملهم بالنحو والتصريف»[1].. إلى غير ذلك من العبارات التي لم تُكَلْ جُزافًا، وإنَّما تعبيرًا عن قدرةٍ باهرة شهد له بها المتقدمون والمتأخرون.

هذه القدرة وذلك التمكُّن قد أعطياه قدرة عجيبة على فتح ممالك النصوص، والسباحة في تيارها مهما علا الموج، والتحليق في أجوائها مهما سما خيال الشاعر، حتى قال الباخرزي: «ليس لأحد من أئمة الأدب في فتح المقفلات وشرح المشكلات ما له، فقد وقع عليها من ثمرات الأعراب؛[2] ولا سيَّما في علم الإعراب، ومن تأمل مصنفاته، وقع على بعض صفاته، فوربِّي أنَّه كشف الغطاء عن شعر المتنبِّي».[3]

وليس هذا مجرد ثناء نظريّ، وإنَّما هي الحقيقة التي يشهد بها المطالع لفكر الرجل، حيث يلمس أن اللغة لم تكن في يده أحجارًا جامدة، بل وصل من خلالها إلى دقائق فنيَّة، وإلى لمحات بلاغية تدل على حِسٍّ مرهف وذوق فنان – نأخذ على ذلك بعض الأمثلة:

(1) عندما أراد توجيه قراءة الحسن في سورة الفاتحة: «اهدنا صراطًا مستقيمًا»،[4] قال أبو الفتح: ينبغي أن يكون أراد – والله أعلم – التذلُّل لله سبحانه، وإظهار الطاعة له، أي قد رضينا منك يا ربنا بما يقال له: صراط مستقيم، ولسنا نريد المبالغة في قول من قرأ الصراط المستقيم، أي: الصراط الذي قد شاعت استقامته، وتُعُولمت في ذلك حالُه وطريقتُه، فإنَّ قليل هذا منك لنا زاكٍ عندنا، وكثير من نعمتك علينا، ونحن له مطيعون، وإلى ما تأمر به وتنهى فيه صائرون، وزاد في حُسن التنكير هنا ما دخله من المعنى، وذلك أنَّ تقديره: أَدِمْ هدايتك لنا، فإنك إذا فعلت ذلك بنا فقد هديتنا إلى صراطٍ مستقيم، فجرى حينئذٍ مجرى قولك: (لئن

---

(1) معجم الأدباء: 3/ 461.

(2) كذا وردت في الدمية وفي معجم الأدباء، وأظنُّ أنَّ بها تحريفًا صوَّبه القِفْطي الذي رواها: «فقد وقع منها على ثمرة الغراب»، وهو مثلٌ يُضرب إذا أصاب الرجل أفضل ما يريد؛ يقال: وجد ثمرة الغراب، لأنَّ الغراب إنَّما يبتغي من الثمر أجوده وأنضجه. (إنباه الرواة: 2/ 338).

(3) دمية القصر: 3/ 1481، ومعجم الأدباء: 3/ 463.

(4) الآية [6] من سورة الفاتحة؛ وقراءة حفص: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾.

لقيت رسول الله ﷺ لتلقين منه رجلًا متناهيًا في الخير، ورسولًا جامعًا لسُبل الفضل)، فقد آلت به الحال إلى معنى التجريد؛ كقول الأخطل:

بِنَــزْوَةِ لِــصٍّ بَعْـدَمَـا مَــرَّ مُصْعَــب  بِأَشْعَـثَ لا يُفْلَــى وَلا هُـوَ يَقْمَـلُ[1]

ومصعب نفسه هو الأشعث، وعليه قول طُرفة:

جَــازَتِ القَــوْمَ إِلَــى أَرْحُلِنَــا  آخِـرَ اللَّيْـلِ بَيَعْفُــورٍ خَــدِرْ[2]

وهي نفسها عنده اليعفور، أنشدنا أبو علي:

أَفَـاءَتْ بَنُـو مَــرْوَانَ أَمْــسِ دِمَـاءَنَـا  وَفِي اللهِ إِنْ لَمْ يَحْكُمُوا حَكَمٌ عَدْلُ[3]

وهو سبحانه أعرف المعارف، وقد سماه الشاعر حكمًا عدلاً، فأخرج اللفظ مخرج التنكير، فقد ترى كيف آل الكلام من لفظ التنكير إلى معنى التعريف.

وفيه مع ذلك لفظ الرضا باليسير، فإذا جاز أن يرضى الإنسان من مخلوق مثله بما رضى به الشاعر من محبوبه، بما دل عليه قوله أنشده ابن الأعرابيّ:[4]

وَإِنِّـي لأَرْضَـى مِنْـكَ يـا لَيْـلُ بِالَّـذِي  لَــوْ ابْــصَرَهُ الوَاشِــي لَقَــرَّتْ بَلابِلُــهْ
بِــلا، وَبِــأَنْ لا أَسْــتَطِيعَ وَبِــالمُنَى  وَبِالوَعْــدِ حَتَّــى يَــسْأَمَ الوَعْــدَ آمِلُــهْ
وَبِـالنَّظْرَةِ العَجْلَـى، وَبِـالحَوْلِ تَنْقَـضِي  أَوَاخِــرُهُ لا نَلْتَقِــى وَأَوَائِلُــهْ

وأنشدني بعض أصحابنا لبعض المولَّدين:

عِــدِينَا وَاكْــذِبِينَا وَامْطُلِينَــا  فَقَــدْ أُومِنْــتِ مِــنْ سُــوءِ العِقَــابِ

---

(1) شرح ديوان الأخطل التغلبي؛ ص271.
(2) ديوان طَرَفة؛ ص50 برواية (جازت البيد...).
(3) لأبي الخطَّار الكلبيّ في حماسة ابن الشجري؛ ص4 برواية:
أفادت بنو مروان قيسًا دماءنا  وفي الله إنْ يُنصفوا حكمٌ عدلُ
وانظر: الخصائص: 2/ 477، معاهد التنصيص: 3/ 16.
(4) لجميل بثينة؛ وهي في ديوانه، ص115، وفي الأغاني: 8/ 105 برواية (من بثينة...).

فَلَسْنَا مِنْ وَعِيدِكَ فِي ارْتِيَابٍ وَلا مِنْ صِدْقِ وَعْدِكَ فِي اقْتِرَابِ
وَلَكِنَّا لِشُؤْمِ الجَدِّ مِنَّا نَفِرُّ مِنَ العَذَابِ إِلَى العَذَابِ

وعليه قوله الآخر:

عَلِّلِينِي بِمَوْعِدٍ وَامْطُلِي مَا حَيِيتُ بِهْ
وَدَعِينِي أَعِيشُ مِنْكِ (م) بِنَجْوَى تَطَلُّبِهْ
فَعَسَى يَعْثُرُ الزَّمَانُ (م) بِقَلْبِي فَيَنْتَبِهْ

ونظائره كثيرة قديمة ومولدة – كان العبد البر والزاهد المجتهد أحرى أن يسأل خالقه جَلَّ وَعَزَّ مقتصدًا في سؤاله، وضامنًا من نفسه السمع والطاعة على ذلك ممن يأمره.

ويؤكد عندك مذهب ما أنشدته آنفًا ما حدَّثنا به أبو عليّ قال: لما قال كُثَيِّر:

وَلَسْتُ بِرَاضٍ مِنْ خَلِيلِي بِنَائِلٍ قَلِيلٍ وَلا أَرْضَى لَهُ بِقَلِيلِ[1]

قال له ابن أبي عتيق: هذا كلام مكافئ، هلَّا قلت كما قال ابن الرُّقَيَّات:

رُقَيُّ بِعَمْرِكُمْ لا تَهْجُرِينَا وَمَنِّينَا المُنَى ثُمَّ امْطُلِينَا[2]»[3]

فانظر إلى ابن جنِّي وهو يفجِّر المعاني تفجيرًا، وهو يحمل القراءات الشاذَّة على معنى غاية في اللطف، وكيف يستنبط منها معنى التجريد؟ وكيف يفيض نهره العذب بسيل من الأبيات الرقيقة؟ فلا تدري أأنت أمام لغويّ حاذق أم أمام بلاغيّ ناقد، أم أمام أديب حافظ تتفجَّر أنهار المعارف من ذاكرته؟

(2) عندما تعرض لشرح بيت ذي الرُّمَة:

(1) ديوان كُثَيِّر عَزَّة؛ ص112 برواية (... ولا راضٍ له بقليل).
(2) ديوان عُبيد الله بن قيس الرُّقيات؛ ص137؛ والقصة مطوَّلة في الأغاني: 5/ 85، 86، وفي الموشح؛ ص201، وفي شرح المرزوقي للحماسة؛ ص1324.
(3) المحتسب: 1/ 41-43.

بَدَتْ مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِي رَوْنَقِ الضُّحَى وَصُورَتُهَا أَوْ أَنْتِ فِي العَيْنِ أَمْلَحُ[1]

ذكر مذهب الفراء الذي رأى أن (أو) بمعنى بل[2]، ورغم صحة ما ذهب إليه الفرَّاء فإنَّ ابن جنِّي يرى أن بقاء (أو) على معناها الأصليّ من الشك أولى، لِمَا ينطوي عليه المعنى مع الشك من بلاغةٍ رائعة ومراوغة مثيرة في أداء المعنى؛ إذ يقول: «... بل إذا كانت هنا على بابها كانت أحسن معنًى وأعلى مذهبًا... وذلك أنَّها على بابها من الشك، ألا ترى أنَّه لو أراد بها معنى بل، فقال بل أنت في العين أملحُ؛ لم يفِ بمعنى (أو) في الشك، لأنَّه إذا قطع بيقين أنَّها في العين أملح كان في ذلك سرفٌ منه ودعاء إلى تهمة في الإفراط له، وإذا أخرج الكلام مخرج الشك كان في صورة المقتصد غير المتحامل ولا المتعجرف، فكان أعذب للفظه وأقرب إلى تقبل قوله، ألا تراه نفسه أيضًا قال:

أَيَا ظَبْيَةَ الوَعْسَاءِ بَيْنَ جَلاجِلٍ وَبَيْنَ النَّقَا آأَنْتِ أَمْ أُمُّ سَالِمِ؟[3]

وبعد؛ فهذا مذهب الشعراء أن يُظهروا في هذا ونحوه شكًّا وتخالجًا، ليروا قوة الشبه واستحكام الشُّبهة، ولا يقطعوا قطع اليقين البتة، فينسبوا بذلك إلى الإفراط وغُلوّ الاشتطاط، وإن كانوا هم ومن يقرأ بعد أشعارهم يعلمون أنَّ لا حيرة هناك ولا شُبهة، ولكن كذا خرج الكلام على الإحاطة بمحصول الحال».[4]

فَفَهْمُ ابن جنِّي مذاهب الشعراء – أي أساليبهم في إيراد الكلام – هو الذي جعله يرفض رأى الفراء – رغم صحته – وهذا يدل على أن ذوق الرجل ليس لغويًّا صرفًا كما أذاع خصومه، وإنَّما هو ذوق الفاهم لروعة الأسلوب، وما ينطوي عليه مع الشك من بلاغة سمَّاها ابن جنِّي نفى الغلو ودعوى الإفراط. وهي في تقديري مراوغة فنية من الشاعر ليُثير المتلقي،

(1) لم أجده في ديوانه.
(2) معاني القرآن؛ للفراء: 1/ 72؛ ولم ينسبه وإنَّما قال: وأنشدني بعض العرب.
(3) ديوان ذي الرُّمة: 2/ 767.
(4) الخصائص: 2/ 460، 461.

ويحرك ذهنه في الترجيح بين الأمرين، وتخيّر أحد الشيئين، فتذهب نفس المتلقّي في التفسير والترجيح كل مذهب، وهناك يكون الشاعر قد نجح في إثارة السامع وجذب انتباهه.

هذان مثالان من طريقة ابن جنّي في فهم معاني الشعر ونقده، وهما غيضٌ من فيض في فكره الذي يمتلئ بمثل هذا التحليل الرائع، وكأنّه يرد عمليًّا وبقوة على أولئك الأدعياء الذين اتهموه بفساد الذوق؛ لأنَّ اهتماماته اللغوية لا تؤهله لفهم مثل هذه المعاني الرائعة!!

إنَّ هذه التحليلات تدلنا بقوة على أنَّ «الضلاعة في التفسير اللغوي وبخاصة في الشعر يُعطى المعنى سيولة عجيبة تلامس الذوق وتصافح الوجدان، وسر جمال الشعر وروعته أنّه كما يُقال جمال أوجه تختلف الرؤى فيه وتتعدد الانطباعات عنه، ويظل مع هذا الاختلاف ذا حرارة ونبض يأخذ على المرء عقله ويستحوذ منه على إحساسه، ويسرى بمضائه إلى حيث مسارب النفس وبؤر الشعور».[1]

ذلك أن التبحُّر في نظر ابن جنّي ليس حفظًا تسجيليًّا شأن زوامل الأشعار، ولا هو جمع متراكم كما يجمع حاطب الليل، وإنَّما هو فهمٌ بصير وذوقٌ رفيع يحوِّل اللغة إلى عجينة مطواع، ويسهِّل وعورة النص عند الانتقاد، فإذا جلاميد التراكيب كأنَّها الماء سلاسة والنسيم رقة، ولا غرو فهو القائل: «فالتأنّي والتلطُّف في جمع هذه الأشياء وضمّها وملائمة ذات بينها، هو خاص اللغة وسرّها، وطلاوتها الرائقة وجوهرها، فأمَّا حفظها ساذجة، وقمشُها محطوبة هَرِجَة فنعوذ بالله منه، ونرغب بما آتاناه سبحانه عنه»[2].

ويقول في موطنٍ آخر مؤكدًا أهمية الذوق مع الإحاطة باللغة: «ومن لم يخلد مع ثقته إلى نظر يعصم به ويتساند إليه بأمانته، أُتِيَ من قِبَل نفسه من حيث يظن أنَّه ينظر لها، وكان ما دهاه في ذلك من أجلِّ فقاهته لا أمانته».[3]

فليت شعري هل حال التبحر في اللغة بين ابن جنّي وبين تذوق المعاني كما زعم الأدعياء؟

---

(1) القضايا الأدبية والفنية في شرح المرزوقي لديوان الحماسة؛ ص121.
(2) الخصائص: 2/ 127.
(3) المحتسب: 1/ 40.

الحقُّ أنَّ هذا التضلُّع في اللغة هو الذي فتح أمامه كل باب، وهتك عن المعاني كل حجاب، وأخذ بيده نحو فضاءات رحبة وأعماق دفينة من المعاني المستورة كما أخذ النحو بيد شيخ البلاغيين عبد القاهر، ليقيم على أساس المعاني النحوية نظريته الرائعة في النظم.

obeikandl.com

# ثالثًا: الفكر الاعتزاليّ

ما كادت فرقةُ المعتزلة تقف على قدمٍ وساق حتى وجدت نفسها وسط بحر عميق تتقاذف التيارات أمواجه يمنة ويسرة، إذ كان كل زعيم فرقة يحاول الظهور ويعمل جاهدًا على أن يكون فارس الميدان، فيحرز قصب الرهان، ناهيك عن أعداء الإسلام الذين ما فتئوا يطعنون الفكر الإسلاميّ طعنات مُصْمِيَة، لولا الوقفة الشجاعة التي وقفها علماء الإسلام في وجه هؤلاء العلوج الأغتام.

وقد كان لفرقة المعتزلة النصيب الأوفى في هذا المضمار، إذ وقف رجالاتها وقفة صامدة شمَّاء أمام عواتي التيارات، مسجلين أروع المُثُل في إفحام الخصوم وكبت أعداء الدين، ومن البدهي أن يتسلح هؤلاء المجادلون بكلِّ عُدَد الصمود والدفاع الدينيَّة واللغويَّة والمعرفيَّة والخطابيَّة حتى ينهضوا بهذا العبء الثقيل.

وقد كان للنقد الأدبيّ الحظ الأوفى من اهتمامات هؤلاء المعتزلة لعاملين كبيرين:

«**أولهما:** أنَّ البلاغة عنصر هام في الإقناع، والإقناع غاية الجدل الكلامي، ولهذا كان بعض علماء المعتزلة معلِّمي بلاغة كما كان سفسطائيو اليونان.

**ثانيهما:** إيمان المعتزلة – رغم دراستهم للثقافات الأجنبية وتأثرهم بها – أنَّ الشعر العربيّ مصدر من مصادر المعرفة الكبرى ووعاء لها.. وإلى جانب هذه الميزة الثقافية يضطلع الشعر بمميزات تتصل بحاجات النفس الإنسانيَّة، ولهذا الشرف في منزلته فإنَّه حقيقٌ بالتمحيص والدرس».[1]

ومن ثَمَّ وجدنا الروَّاد الأوائل الذين أسَّسوا علم البلاغة والنقد الأدبيّ من المعتزلة من أمثال: إبراهيم بن سيَّار النظام (ت 220هـ تقريبًا)، والجاحظ (ت 225هـ)، وأبي العباس الناشئ (ت293هـ) ... وهي الطبقة التي وصفها بِشر بن المُعْتمر بقوله: ولأنَّ

(1) تاريخ النقد الأدبيّ عند العرب؛ د. إحسان عباس، ص66 وما بعدها.

كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء، وأبلغ من كثير من البلغاء[1].

وفى هذا الخبر الذي يرويه الشريف المرتضى خير دليل على امتلاك رجال هذه الطائفة لأَزِمَّةِ البيان منذ نعومة أظافرهم؛ حيث يروى: «دخل النظَّام على الخليل بن أحمد وهو حَدَثٌ ليعلِّمه، فقال له الخليل يومًا يمتحنه وفى يده قدح زجاج: يا بُنيّ؛ صف لي هذه الزجاجة، فقال: أبمدح أم بذم؟ قال: بمدح، قال: نعم، تريك القذى، لا تقبل الأذى، ولا تستر ما ورى. قال: فذمَّها، قال: سريع كسرها، بطيء جبرها. قال: فصف هذه النخلة، وأومأ إلى نخلة في داره فقال: أبمدحٍ أم بذم؟ قال: بمدح، قال: حلو مُجْتناها، باسق منتهاها، ناضر أعلاها، قال: فذمَّها، قال: هي صعبة المرتقى، بعيدة المُجْتنى، محفوفة الأذى، فقال الخليل: يا بُنيّ؛ نحن إلى التعلُّم منك أحوج»[2].

لهذه القدرة الرائعة لدى أئمة المعتزلة راقت هذه المدرسة لجُلِّ أرباب الفكر، وولَّى الشعراء وجههم شطرها يستلهمون منها المعرفة، ويستلمون الفكر من أفواه أقطابها «بل قلَّما نجد شاعرًا نابهًا في هذا العصر إلا وتلمذ لهم على نحو ما هو معروف عن بشار وأبي نُواس وأبان اللاحقي والعتَّابي ومنصور النمريّ وأبى تمام[3].

كما أن علماء العربية وجدوا في هذه المدرسة روح الحرية الفكرية التي لا تحجر على العقل ولا تكبّل الفكر، بل تمنحه القدرة على الخلق والإبداع، وتمدّه بجناحين يحلق بهما في آفاق الفن وأجواء البيان، لهذا اعتنقه ناقدنا ابن جني، وهو الذي يسبِّح بحمد الحرية آناء الليل وأطراف النهار، ولم يكن ابن جنِّي وحيدًا في هذا الاتجاه بل كانت تلك شنشنة علماء العربية ونقَّادها في تلك الحقبة من تاريخ الفكر العربيّ من أمثال: الرماني (ت 384هـ)، والمرزباني ( ت384هـ)،

(1) البيان والتبيين: 1/ 139.
(2) أمالي المرتضى: 1/ 189.
(3) تاريخ الأدب العربيّ العصر العباسي الأول؛ د. شوقي ضيف، ص 133.

والصاحب بن عبَّاد (ت 385هـ)، والقاضي عبد الجبار (ت 415هـ)، والشريف المرتضى (ت 436هـ) وغيرهم.

وقد كان لاعتناق ابن جنِّي هذا المذهب أثره الواضح في تلوين وتكوين فكره النقدي، فقد رفع راية غلبة الحقيقة على المجاز، حتى اشتط في هذا الموضوع أبلغ الشطط، فزعم أنَّ كل فعل مجاز لا حقيقة حيث يقول: «اعلم أنَّ أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة، وذلك عامة الأفعال؛ نحو: قام زيد، وقعد عمرو، وانطلق بِشْر، وجاء الصيف، وانهزم الشتاء. ألا ترى أنَّ الفعل يفاد منه معنى الجنسية، فقولك: قام زيد؛ معناه كان منه القيام، أي هذا الجنس من الفعل، ومعلوم أنَّه لم يكن منه جميع القيام، وكيف يكون ذلك وهو جنس، والجنس يطبق جميع الماضي وجميع الحاضر وجميع الآتي الكائنات مِنْ كل مَنْ وجد منه القيام، ومعلوم أنَّه لا يجتمع لإنسان واحد في وقتٍ واحد ولا في مائة ألف سنة مضاعفة القيام كله، الداخل تحت الوهم»[1].

ولذلك وجدناه يحتفل كل الاحتفال بالمعاني المجازية في الشعر، ويلوذ بها في مقام الدفاع عن مسألة التوحيد في نظر المعتزلة، وهو أصل من أصول مذهبهم، ومن مقتضياته نفى كل دواعي التشبيه عن الله سبحانه وتعالى؛ يقول الشهرستاني: «واتفقوا على نفى رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القرار، ونفى التشبيه عنه من كل وجه؛ جهة ومكانًا وصورة وجسمًا وتحيزًا وانتقالًا وزوالًا وتغيرًا وتأثرًا، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها وسموا هذا النمط توحيدًا».[2]

ومن ثَمَّ وجدنا ابن جنِّي يؤوِّل القرآن على مقتضى مذهب المعتزلة لائذًا باللغة المجازيَّة في الشعر التي تفي له بهذا الغرض أيّما وفاء.

ففي قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:115] ينفى المعتزلة عن الله الوجه لِمَا يقتضيه من التمثيل، فيفسر ابن جنِّي الوجه بالاتجاه إلى الله مستشهدًا ببيت الكتاب:

---

(1) الخصائص: 2/ 449، 450 وانظر: الفتح الوهبي، ص27 حيث تكرَّرت الفكرة.
(2) الملل والنحل (بهامش الفِصَل): 1/ 55.

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْبًا لَسْتُ مُحْصِيهِ رَبِّ العِبَادِ إِلَيْهِ الوَجْهُ وَالعَمَلُ[1]

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:67] ينفي المعتزلة عن الله اليمين بمعنى الجارحة، ولذا يفسِّرها ابن جنّي بالقوة، لائذًا بقول الشماخ:

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِاليَمِينِ[2]

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:42] يُنكر المعتزلة أن يكون لله ساق، فيفسِّرها ابن جنّي: بأنها كناية عن شدة الأمر؛ لائذًا بقول الشاعر:

كَشَفَتْ لَهُمْ عَنْ سَاقِهَا وَبَدَا مِنَ الشَّرِّ الصُّرَاحُ[3]

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:28] يُنكر المعتزلة خلق أفعال العباد لِمَا يوحي به لك من جبرٍ يتنافى مع الثواب والعقاب، فيفسِّر ابن جنّي (أغفلنا) بأنَّ معناها: صادفناه غافلًا، أو وجدناه غافلًا، مستشهدًا بقول الأعشى:

(أَثْوَى وَقَصَّرَ لَيْلَةً لِيُزَوَّدَا) فَمَضَى وَأَخْلَفَ مِنْ قُتَيْلَةَ مَوْعِدَا

أي صادفه مُخْلِفًا.[4]

وهكذا يستعصم ابن جنّي بالشعر حتى يفسِّر القرآن تفسيرًا يوافق مذهبه العقدي، جاعلًا من اللغة الشعرية المجازيَّة ملاذه الذي يلجأ إليه عند الاحتجاج، وكأنَّ الفكر الاعتزالي كان يتحكم كلَّ التحكم في تفسيره للشعر ونقده.

وفي مجال تفسير الشعر وجدنا ابن جنّي يرجِّح وجهًا على آخر؛ لأنَّ المرجوح يخالف آراء المعتزلة ويصادم مبادئهم.

---

(1) انظر: الخصائص: 3/ 250، والبيت غير منسوب في الكتاب: 1/ 37.

(2) انظر: الخصائص: 3/ 252، والبيت في ديوان الشماخ، ص 336.

(3) انظر: الخصائص: 2/ 254، 255، والبيت لسعد بن مالك؛ جد طَرَفة بن العبد، وهو من أبيات الحماسة [شرح المرزوقي: 1/ 504، 505].

(4) انظر: الخصائص: 3/ 256، 257، والبيت للأعشى في ديوانه، ص 227.

فقد ذكر في «الخصائص» عن الزيادي عن الأصمعي قال: حضر الفرزدق مجلس ابن إسحاق فقال له: كيف تنشد هذا البيت:

وَعَيْنَانِ قَالَ اللهُ كُونَا فَكَانَتَا فَعُولَانِ بِالأَلْبَابِ مَا تَفْعَلُ الخَمْرُ؟

فقال الفرزدق: كذا أُنشد، فقال ابن إسحاق: ما كان عليك لو قلت فعولين؟ فقال الفرزدق: لو شئت أن تسبِّح لسبَّحت... ونهض فلم يعرف أحدٌ في المجلس ما أراد بقوله له: لو شئت أن تسبِّح لسبَّحت، أي لو نصب لأخبر أنَّ الله خلقهما وأمرهما أن تفعلا ذلك، وإنَّما أراد أنهما تفعلان بالألباب ما تفعل الخمر. قال أبو الفتح: (كان) هنا تامة غير محتاجة إلى الخبر فكأنه قال: وعينان، قال الله: احدثا فحدثتا، أو اخرجا إلى الوجود فخرجتا[1].

وتفسير هذا الخبر أن (كان) إمَّا أن تعتبر تامة وهي المكتفية بالفاعل فلا تحتاج إلى خبر منصوب، وهي بمعنى وُجِد كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة:280]، ومعنى البيت قال الله لهما: كونا؛ أي أحدثا فحدثتا، ثم استأنف كلامًا جديدًا فقال: فعولان بالألباب، فتكون (فعولان) خبرًا لمبتدأ محذوف؛ أي هما فعولان، وهذا ما أراد الفرزدق وأيَّده ابن جنِّي.

وإمَّا أن تعتبر ناقصة فتكون (فعولين) خبرها، وهذا وإن جاز نحويًّا إلا أنَّه يتعارض مع أصل (العدل) عند المعتزلة، إذا يلزم منه أن الله أمرهما بذلك، بل أجبرهما على هذا الفعل وسخَّرهما لتنفيذه، وقد اتفق المعتزلة على أنَّ العبد خالق لأفعاله خيرها وشرها، مستحق على ما يفعله ثوابًا وعقابًا في الدار الآخرة، والرَّب تعالى منزَّه أن يضاف إليه شر وظلم وفعل هو كفر ومعصية؛ لأنَّه لو خلق الظلم كان ظالمًا، كما لو خلق العدل كان عادلًا.[2]

وهكذا فرض الاعتزال على ابن جنِّي رؤى معينة في نقده للشعر، فهو لا يرى الشعر إلا بمرآة المعتزلة، إما ليتخذ منه الدليل في تفسيره لآي القرآن، وإما ليرجِّح وجهًا على

(1) الخصائص: 3/ 305، والخبر في مجالس العلماء؛ للزَّجَّاجي، ص 66، وأمالي المرتضى: 1/ 20، والبيت لذي الرُّمة في ديوانه: 1/ 578.
(2) الملل والنحل: 1/ 55، 56.

وجه شريطة ألا يخرج عن أصول مذهبه، وهي لا شك رؤًى تحرُّريَّـة، دائمـة التمـرُّد عـلى القيود السلفيَّة التي تحبس النص في أقفاصٍ من حديد، فاعتماد ابن جنِّـي مـذهب المعتزلـة إنَّما هو حمل لمشاعل الحريَّـة أمـام النـصوص، وفهـم محلّـق دون قيـود، وتلـك بدايـة كـلِّ تجديد.

obeikandl.com

## رابعًا: مجلس سيف الدولة الحمدانيّ

ابتنى سيف الدولة عليّ بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان التغلبيّ لنفسه قصرًا من الأمجاد؛ حيث كان مفزع الخليفة في بغداد عند الشدَّة، يعهد إليه بتأديب المارقين وتخضيد شوكة الثائرين، ومتى آوى إليه فقد آوى إلى ركنٍ شديد، له جذور راسخة في الفتوَّة، وفروع باسقة في القوة، لكنَّ ذلك الشاب الطموح المقدام كان يفعل ذلك تحت إمرة أخيه ناصر الدولة أمير الموصل، حتى جاء عام 333هـ فانقضَّ سيف الدولة على حلب التي كانت تحت إمرة الإخشيد، فارتعدت فرائصه، وولى يحتَثُّ أنجى مطاياه من الهرب، ليؤسس سيف الدولة نواة مُلك سوف يُناطح الجوزاء عزًّا، وسوف يكتب اسم صاحبه بحروفٍ من نور في سجل الخالدين.[1]

فلما أسَّس سيف الدولة مُلكه، أصبحت حلب كعبة للعلماء، ومثابة للأدباء، يحفون إليها زُرَافات وَوُحْدانا، ويأتونها رجالا وعلى كل ضامرٍ من كل فجٍّ عميق، ولعلَّ ذلك راجع إلى عدة أسباب:

(1) أنَّ سيف الدولة عربيّ المحتد، إذ ينتمي إلى قبيلة تغلب، ذلك الاسم الذي يملأ القلوب رعبًا؛ فقد وُصِفَ بنو تغلب بأنَّهم (كانوا أسودًا تُرهب، وسِهَامًا لا تُقرب، وأبطالًا لا تُكذب»[2]، ولذا يقول فيه المتنبِّي:

**مِنْ تَغْلِبَ الغَالِبينَ النَّاسَ مَنْصِبُهُ وَمِنْ عَدِيٍّ أَعَادِي الجُبْنِ وَالبَخَلِ**[3]

رأى العلماء هذا المحتد الأصيل وسط المحيط الإسلامي الذي كادت هويته تُمحى بعدما سيطر الترك ثم البويهيون على مقاليد الأمور في بغداد، تلك السيطرة التي كانت تؤرق محبي

(1) انظر في كيفية وصوله إلى الإمارة: سير أعلام النبلاء: 16/ 188، دول الإسلام: 1/ 205، البداية والنهاية: 11/ 223، 224.
(2) ذيل الأمالي والنوادر: 3/ 30.
(3) ديوان المتنبِّي، ص 330.

العروبة، فتحن نفوسهم شوقًا إلى ذلك اليوم الذي يتخلص فيه العالم العربيّ من سيطرة العجم، حتى قال المتنبِّي الذي يمتلئ امتعاضًا وبُغضًا للأعاجم:

سَيَصْحَبُ النَّصْلُ مِنِّى مِثْلَ مَضْرِبِهِ وَيَنْجَلِي خَبَرِي عَنْ صِمَّةِ الصِّمَمِ

بِكُلِّ مُنْصَلِتٍ مَا زَالَ مُنْتَظِرِي حَتَّى أَدَلْتُ لَهُ مِنْ دَوْلَةِ الخَدَمِ[1]

(2) وجد العلماء والأدباء الدولة العباسية تُنْتقص من أطرافها، والخليفة في بحرٍ من العجز والهوان، يقتطع منه كل متغلب طرفًا من المملكة مقابل الخِراج والدعاء، بينما الدولة البيزنطية ذات الأحقاد الصليبية الناخرة في العِظام حتى النخاع تهاجم المسلمين، ورأوا أنَّ سيف الدولة الحمداني يمثِّل جبهة الصمود والتحدي لهذه القوة الكاسحة؛ إذ خاض أعتى الحروب ضد إحدى القوى العظمى في العالم، فردَّهم على أعقابهم خاسرين، وأعادهم صُفر الوجوه من الخزي والعار، بعدما جاءوا بجيوشٍ جرارة لا قِبَلَ لأحدٍ بها ولا طاقة لهم لتلك الجيوش؛ التي قال المتنبِّي عن مَنْ فيها من أشتات مجتمعات:

خَمِيسٌ بِشَرْقِ الأَرْضِ وَالغَرْبُ زَحْفُهُ وَفِى أُذُنِ الجَوْزَاءِ مِنْهُ زَمَازِمُ

تَجَمَّعَ فِيهِ كُلُّ لِسْنٍ وَأُمَّةٍ فَمَا تُفْهِمُ الحُدَّاثَ إِلَّا التَّرَاجِمُ[2]

فردَّ سيف الدين الدولة هذه الجموع بعدما خاض حروبًا ومعارك ضارية، حتى قال الرواة: «إنَّه جمع الغبار الذي يقع عليه في تلك المعارك، وصنع منه لَبِنَةً، وأوصى أن تُوضع تحت خدِّه في القبر».[3]

(3) كان سيف الدولة كثير الإغداق على العلماء والشعراء لا يقبض يده عن قريبٍ أو بعيد، فخفَّ العلماء إليه في حلب حتى يحوزوا هذا النصيب العظيم فيعودون إلى ديارهم بُجْرَ

(1) ديوان المتنبِّي، ص 32، 33.
(2) ديوان المتنبِّي، ص 376.
(3) سير أعلام النبلاء: 16/ 189.

الحقائب، «فقد أمر الرجل بضرب دنانير للصلاة، عليها اسمه وصورته، وزن الدينار منها عشرة مثاقيل».[1]

وقد ذكرتُ مثالاً من قبل على إجابته كل طلب للمتنبِّي في بيته المليء بالمطالب[2]، بل إنَّ عطاياه قد تعدَّت سكان حلب، فقد حكى الصابي: طلب منى رسول سيف الدولة شيئًا من شعرى فدافعته أيامًا، ثم ألحَّ عليَّ وقت الخروج فأعطيته هذه الثلاثة الأبيات؛ وهى:

**إِنْ كُنْتُ خُنْتُكَ في الأَمَانَةِ سَاعَةً ... فَذَمَمْتُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ المَحْمُودَا**

**وَزَعَمْتُ أَنَّ لَهُ شَرِيكًا في العُلا ... وَجَحَدْتُهُ في فَضْلِهِ التَّوْحِيدَا**

**قَسَمًا لَوْ انِّى حَالِفٌ بِغُمُوسِهَا ... لِغَرِيمِ دَيْنٍ مَا أَرَادَ مَزِيدًا**

قال: فلما عاد الرسول إلى الحضرة، ودخلت عليه مسلِّمًا، أخرج لي كيسًا بختم سيف الدولة مكتوبًا عليه اسمى وفيه ثلاثمائة دينار.[3]

لهذا كله جمعت حلب ثُلَّة من خير شعراء العربية الفحول، وكتَّابها المجيدين، وعلمائها الحذَّاق، من أمثال: المتنبِّي (ت354هـ)، وأبي فراس الحمداني (ت 357هـ)، وأبى الفتح كشاجم (ت360هـ)، والسريّ الرَّفاء (ت362هـ)، وابن خالويه (ت370هـ)، والوأواء الدمشقي (ت390هـ)، وأبي العباس النامي (ت399هـ)، وابن نباتة السعدى (ت 405هـ)، وغيرهم كثير.

وصدق الثعالبي وهو يقول واصفًا حضرة سيف الدولة: «مقصد الوفود، ومطلع الجود، وقبلة الآمال، ومحط الرِّحال، وموسم الأدباء، وحلبة الشعراء، ويقال: إنَّه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر، ونجوم الدهر، وإنَّما السلطان

(1) يتيمة الدهر: 1/ 42.
(2) انظر هذا البحث: ص23، 24.
(3) يتيمة الدهر: 1/ 45.

obeikandl.com

سوق يجلب إليها ما ينفق لديها، وكان أديبًا شاعرًا محبًّا لجيِّد الشعر، شديد الاهتزاز لما يمدح به[1].

وقد تبيَّن لنا من خلال حياة ابن جنِّي أنَّه وصل إلى حلب مع شيخه أبى عليّ الفارسي في عام 341هـ ومكث فيها خمس سنوات، إذ فارقها عام 346هـ، وهي مدة كافية لأنْ ينهل ابن جنِّي ويعل من نهر العطاء العلمي المتدفق على أرض حلب.

لقد أحبَّ ابن جنِّي المُقام في حلب حبًّا جمًّا رغم ما كان يعكر صفو الجو من مشاحنات بين الأدباء والنحاة، فثَمَّ صراعات بين أبى عليّ الفارسي وابن خالويه وبينهما معًا وبين المتنبِّي وأبى فراس، هذه الصراعات وإن أفسدت العلائق الاجتماعية فإنَّها أعظم ما يُصلح به أمر العلم والشعر، لأنَّها تحرِّك المياه الآسنة وتُذْكى نار البحث والاطِّلاع في نفس كلِّ رجل منهم؛ حيث يطمع في إحراز قصب السبق، وتحقيق الفَلْج على خصمه الألدّ.

ومما زاد من حدَّة الصراع أنَّ سيف الدولة كان شاعرًا ناقدًا لغويًّا، يتمتع بذوق مُرْهَف في هذه المجالات جميعًا، فأفاد ابن جنِّي من هذه الصراعات جميعًا كلَّ الإفادة.

**ففي مجال اللغة:** «يتدخل المتنبِّي في حلبة صراع لغويّ بين ابن خالويه وأبى الطيِّب اللغوي، فينصر الأخير فيغتاظ ابن خالويه ويُخرج مفتاحًا ليلكم به المتنبِّي، فيقول له: اسكت؛ ويحك فإنَّك أعجمي وأصلك خوزي، فما لك وللعربية؟ فضرب ابن خالويه وجه المتنبِّي بذلك المفتاح، فأسال دمه على وجهه وثيابه»[2].

وسيف الدولة يطلب من ابن خالويه اسمًا ممدودًا جمعه مقصور، فيقول: أنا أعرف أسماء ممدودة تُجمع بالقصر، قال: ما هي؟ قال: لا أقول إلا بألف دينار.[3]

---

(1) يتيمة الدهر: 1/ 37.
(2) الصبح المُنبي، ص87.
(3) المزهر في علوم اللغة؛ للسيوطي: 2/ 226، 227.

بل «يسأل سيف الدولة ابن خالويه عن دمشقة؛ هل يُقال فيها دمشقة؟ فأجابه: دمشق اسم هذه المدينة، ليست عربية إنَّما هي معرَّبة ولا يقال بغيرها... فأعاد سيف الدولة الرقعة وقد وقع فيها: مَرَّ بنا في كتاب، قال عبد الرحمن بن حلّ الجمحي وهو بعسكر يزيد بن أبي سفيان عند حصارهم دمشق:

أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنَّا بِأَنَّنَا ... عَلَى خَيْرِ حَالٍ كَانَ جَيْشٌ يَكُونُهَا

وَأَنَّا عَلَى بَابَيْ دِمَشْقَةَ نَرْتَمِي ... وَقَدْ حَانَ مِنْ بَابَيْ دِمَشْقَةَ حِينُهَا

فكتب إليه ابن خالويه: هذا جائز للشاعر ولا سيما إذا كان يقصد بدمشق إلى مدينة، فزادها هاءً لتأكيد التأنيث، فبعث إليه سيف الدولة يستحضره، فلما مَثُل بين يديه، قال: أيها الأمير؛ رُبَّ علم كنت سببه، وقد استفدت دمشقة، إلا أنَّه في النحو كما ذكرت، والعرب تزيد المذكر بيانًا كما قال النبي ﷺ ابن لبون ذَكر، وتزيد المؤنث توكيدًا مثل: نعجة أنثى... وذكر كلامًا غيره».[1]

**وفي مجال الشعر:** كان سيف الدولة شاعرًا مُفْلِقًا وهو القائل في جارية له كان يحبها جدًّا فأزمع سائر حظاياه على التخلص منها فنقلها إلى حصنٍ آخر وقال:[2]

رَاقَبْتِنِي العُيُونُ فِيكِ فَأَشْفَقْتُ (م) ... وَلَمْ أَخْلُ قَطُّ مِنْ إِشْفَاقِ

وَرَأَيْتُ العَذُولَ يَحْسُدُنِي فِيكِ (م) ... مُجِدًّا بِأَنْفَسِ الأَعْلاقِ

فَتَمَنَّيْتُ أَنْ تَكُونِي بَعِيدًا ... وَالَّذِي بَيْنَنَا مِنَ الوُدِّ بَاقِ

رُبَّ هَجْرٍ يَكُونُ مِنْ خَوْفِ هَجْرٍ ... وَفِرَاقٍ يَكُونُ خَوْفَ فِرَاقِ

وهو شعر رقيق يدل على ما يتمتع به الأمير من موهبة متوقدة وحسّ مرهف، ومن ثَمَّ كان

---

(1) انظر: الشعر في رحاب سيف الدولة؛ ص55، 56 (باختصار) نقلا عن الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة؛ لابن شداد: 1/ 15، 16.

(2) يتيمة الدهر: 1/ 54، 55 وبه أمثلة كثيرة.

obeikandl.com

يذكِّي نار العداوة بين الشعراء، حتى يشحذ أذهانهم للتحقيق وراء كل غريب نادر، فقد قال ذات يوم لندمائه: أيُّكم يجيز قولي وليس له إلا سيدي (يعنى أبا فراس الحمداني) :

لَكَ جِسْمِي تُعِلُّهُ فَدَمِي لِمْ تُحِلُّهُ

لَكَ مِنْ قَلْبِيَ المَكَانُ (م) فَلِمْ لا تَحِلُّهُ

فارتجل أبو فراس وقال:

أَنَا إِنْ كُنْتَ مَالِكًا فَلِي الأَمْرُ كُلُّهُ

فاستحسنه وأعطاه ضيعةً بمَنْبِج تغلُّ ألفيْ دينار.[1]

وهكذا كان مجلسه ندوة شعريَّة يلقى فيها فحول شعراء العصر أفضل ما عندهم، وسيف الدولة الشاعر يطرب لهذا ويعرض عن ذاك، يمنح هذا ويمنع ذاك... وابن جنِّي يستمع إلى هذا النهر المتدفق من الشعراء فينهل ويعلُّ بلا حدود، ورُبَّ قارئٍ كحالب وسامعٍ كشارب.

**وفى مجال النقد:** كان سيف الدولة يقف موقف الناقد البصير الذي يزن الكلام بميزان الذهب، وفى تقديري أنَّه كان أولى من أبى بكر على بن صالح الكاتب؛ يقول المتنبِّي فيه:

مَلِكٌ مُنْشِدُ القَرِيضِ لَدَيْهِ يَضَعُ الثَّوْبَ في يَدَىْ بَزَّازِ

وَلَنَا القَوْلُ وَهُوْ أَدْرَى بِفَحْوَاهُ (م) وَأَهْدَى فِيهِ إِلَى الإِعْجَازِ[2]

حقًّا لقد كان سيف الدولة ناقدًا بصيرًا، يتمتَّع بذوقٍ نقدي مرهف، وبدراية بتضاريس الخريطة الشعريَّة العربيَّة، وبقدرة هائلة على الوقوف على أسرار النصّ دون معاناة، وحسبنا ما رُوى أنَّ المتنبِّي لما أنشد سيف الدولة قصيدته التي مطلعها:

---

(1) يتيمة الدهر: 1/ 43.

(2) ديوان المتنبِّي، ص190، 191.

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأْتِي العَزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ

فلما بلغ قوله فيها:

وَقَفْتَ وَمَا فِي المَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ

تَمُرُّ بِكَ الأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

قال: قد انتقدنا عليك هذين البيتين، كما انتقد على امرئ القيس بيتيه:

كَأَنِّيَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلَذَّةٍ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ

وَلَمْ أَسْبَأْ الزِّقَّ الرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ لِخَيْلِيَ كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

وبيتاك لا يلتئم شطراهما، كما ليس يلتئم شطرا هذين البيتين، وكان ينبغي لامرئ القيس أن يقول:

كَأَنِّيَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا وَلَمْ أَقُلْ لِخَيْلِيَ كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

وَلَمْ أَسْبَأْ الزِّقَّ الرَّوِيَّ لِلَذَّةٍ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ

ولك أن تقول:

وَقَفْتَ وَمَا فِي المَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

تَمُرُّ بِكَ الأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ

فقال: «أيَّد الله مولانا، إنْ صحَّ أن الذي استدرك على امرئ القيس هذا كان أعلم بالشعر منه، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا، ومولانا يعرف أنَّ الثوب لا يعرفه البزَّاز معرفة الحائك، لأنَّ البزاز يعرف جملته، والحائك يعرف جملته وتفاريقه، لأنَّه هو الذي أخرجه من الغزلية إلى الثوبية، وإنَّما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد، وقرن السماحة في شراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء، وأنا لما ذكرت الموت في أول البيت أتبعته بذكر الردى، وهو الموت ليجانسه، ولما كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوسًا وعينه من أن تكون باكية قلت: (ووجهك وضَّاح وثغرك باسم) لأجمع بين الأضداد في المعنى،

وإن لم يتسع اللفظ لجميعها.. فأُعجب سيف الدولة بقوله، ووصله بخمسين دينارًا من دنانير الصلات، وفيها خمسمائة دينار».[1]

وهو مثال يدل على ما كان يتمتع به الرجلان من ذوقٍ وحسّ مرهف، ودراسة واعية للخريطة الشعرية، وما أُثير حولها من جدل ونقد.

وقد كانت هذه المحاورات النقدية – إن صحَّ التعبير – تدور كل يومٍ وليلة ما دام هناك شاعر يفيض لسانه بنهر الإبداع، ومتلقٍ واعٍ يسبر أغوار الكلام كما يسبر البزاز والحائك أنواع الثياب، وكلا النوعين موجودان بكثرة في رحاب سيف الدولة.

ويُروى: «أن أبا الحسن محمد بن أحمد المعروف بالشاعر المغربي أنشد سيف الدولة قول المتنبي:

**رَأَيْتُكَ في الَّذِينَ أَرَى مُلُوكًا كَأَنَّكَ مُسْتَقِيمٌ في مُحَالِ**

**فَإِنْ تَفُقِ الأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ**

فقال – وكان المتنبِّي حاضرًا –: هذا البيت والذي يتلوه لم يسبق إليه، فقال سيف الدولة: كذا حدَّثني الثقة: أنَّ أبا الفضل محمد بن الحسين قال كما قلت، فأُعجب المتنبِّي واهتزَّ، قال: فأردت أن أُحركه فقلت: إلا أن فيه عيبًا في الصّنعة، فالتفت المتنبِّي التفات حَنِقٍ وقال: ما هو؟ قلت: قولك (مستقيمٌ في مُحَال)، والمُحَال ليس من ضد الاستقامة، بل ضدها الاعوجاج.

فقال الأمير: هب القصيدة جيمية فكيف تعمل في تغيير قافية البيت الثاني؟ فقال عَجِلًا كَرَدِّ الطرف (فإن البيض بعض دم الدَّجاج) فضحك، ثم ضرب بيده الأرض وقال: حسنٌ مع هذه السرعة إلا أنَّه يصلح أن يباع في سوق الطير، لا مما يمدح به أمثالنا يا أبا الحسن».[2]

---

(1) انظر الخبر في: يتيمة الدهر: 1/ 43، 44، شرح الواحدي؛ ص552، معجز أحمد: 3/ 428، الصبح المنبي؛ ص85، وبيتا المتنبي في ديوانه؛ ص377 وبه القصة، وبيتا امرئ القيس في ديوانه؛ ص35.

(2) شرح الواحدي؛ ص395، التبيان: 3/ 120، 121، وبيتا المتنبي في ديوانه؛ ص258.

وهكذا كان المجلس حافلاً بما لذَّ وطاب من لغةٍ وشِعر ونقد، ومن شأن ذلك أنْ يصقل المَلَكَة النقدية لكل من يلم به، حتى قال أبو بكر الخوارزمي وهو الذي دوَّخ البلاد طولًا وعرضًا، ولكنَّه أُعجب بهذا المجلس أيَّما إعجاب حيث صقله كلَّ الصقل: «ما فتق قلبي، وشحذ فهمي، وصقل ذهني، وأرهف حدّ لساني، وبلغ هذا المبلغ بي إلا تلك الطرائف الشامية، واللطائف الحلبية، التي علقت بحفظي، وامتزجت بأجزاء نفسي، وغصن الشباب رطيب، ورداء الحداثة قشيب».[1]

فإذا كان هذا حال أبى بكر الخوارزمي الذي لم يمكث في حلب كثيرًا، فما بالك بابن جنّي الذي قضى خمس سنوات تشنف فيها أُذنه بهذا السيل المتدفق من العلوم والمعارف؟

وقد يقال: لِمَ لَمْ ترد لابن جنّي آراء نقدية في مجلس سيف الدولة الحمداني؟

**أقول:** أنَّه كان لا يزال في عهد الطلب، ومن حوله أساتذته الأجلَّاء فآثر الاستماع والاستمتاع، مما صقل ذهنه الوقَّاد، فكان المجلس - لا شك - عاملاً من عوامل تكوينه، حيث ظل لا ينسى دروسه ما دام حيًّا.

(1) يتيمة الدهر: 1/ 35، 36.

obeikandl.com

## خامسًا: صُحبة المُتنبِّي

عندما وصل ابن جنِّي إلى حضرة سيف الدولة الحمدانيّ بحلب عام 341 هـ لَقِي المتنبِّي الذي سبقه إلى البلاط الحمداني بأربع سنوات، إذ قَدِمَ حلب عام 337 هـ ليلتقي نابغتا العراق على المائدة الحمدانية الحافلة بما لذَّ وطاب من الفنون والآداب، فأحبَّ كلّ منهما الآخر حبًّا جمًّا، إذ وجد كل منهما في الآخر ضالته التي ينشدها، وبُغْيَته التي يلتمسها وجد ابن جنِّي في المتنبِّي مثال الشاعر المُفْلِق المفعَم بروح العروبة، النابض قلبه بمعاني الثورة والقوة، المتشرِّبة نفسه بدواعي التغيير، الناطق لسانه بآيات السحر في أبيات الشعر. ووجد المتنبِّي في ابن جنِّي مثال العالِم النحرير، الشغوف بالعربية، الغائص في بحرها إلى أعماق الأعماق بحثًا عن الدُّر المكنون، فتلاقى القلبان وتعانق الحبيبان.

وبإمكاننا أنْ نردَّ هذه الصحبة إلى عدة أسباب:

**أولًا:** أنَّهما عراقيان مغتربان؛ إذ وُلِدَ المتنبِّي بمحلة كندة بالكوفة، وَوُلِدَ ابن جنِّي بالموصل؛ فكلتا الشجرتين قد نبتت في تربة العراق الخصبة آنذاك ببواعث العبقرية والإبداع، ثم جمع البَيْن بينهما في حلب فاشتمَّ كلٌّ منهما في الآخر نسيم العراق وحنَّت الدماء في عروقهما. فمن الملاحظ أنَّ المغترب يقضي أيامًا في سبيل البحث عن رجل من قُطره حتى يصحبه في مُغْتَرَبه، فما إن تقع عيناه عليه حتى يجلس معه في غربته ويأنس به من وحشته وإنْ لم يسبق لهما لقاء قط، ومن قديم رفع امرؤ القيس عقيرته عندما أدركته المنية ببلاد الروم قائلًا:[1]

**أَجَارَتَنَا إِنَّ المَزَارَ قَرِيبُ ... وَإِنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبُ**

**أَجَارَتَنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَاهُنَا ... وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلغَرِيبِ نَسِيبُ**

**ثانيًا:** التقارب السِّنيّ بين الرجلين؛ إذ وُلِدَ المتنبِّي عام 303 هـ، وقد رجَّحنا أن يكون ميلاد ابن جنِّي عام 302 هـ، فساعد ذلك على نمو شجرة الصداقة نموًا طبيعيًّا لا يعرف

(1) ديوان امرئ القيس؛ ص357.

التكلُّف، لأنَّ السن عندما تتباعد تحول دون الصداقة كُلَف معينة تلك التي تلزم الصغير بتوقير الكبير وتلزم الكبير بعدم طرح رداء الاحتشام وترك الإسفاف مع من هو في طبقة أبنائه أو تلاميذه، أما عند تقارب السِّن فإنَّ الكُلَف تزول ليتحدث كل رجل إلى صديقه بآماله وآلامه، بأشواقه وأشجانه دون تحرُّج أو تكلُّف.

**ثالثًا:** سريان روح العروبة في دم كل منهم، فالمتنبِّي يعشق العرب حتى النخاع، ويبغض العجم بلا حدود، بل إنَّه ما رغب في بنى حمدان إلا «لِمَا عرفوا به من الصراحة في الحكم، والدهاء في السياسة، والعصبية للعربية الصريحة، وبغضهم لحكام الأعاجم الذين كانوا هم أصحاب الأمر والنهي في الدولة كلِّها».[1]

وهي روح سارية في عروق المتنبِّي منذ نعومة أظافره، ألم يصرخ في مدحه لمحمد بن إسحاق التنوخي وهو مازال صبيًّا غض الإهاب بقوله:[2]

**أَحَقٌّ عَافٍ بِدَمْعِكَ الهِمَمُ ... أَحْدَثُ شَيءٍ عَهْدًا بِهَا القِدَمُ**

**وَإِنَّمَا النَّاسُ بِالمُلُوكِ وَمَا ... تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمُ**

**لا أَدَبٌ عِنْدَهُمْ وَلا حَسَبٌ ... وَلا عُهُودٌ لَهُمْ وَلا ذِمَمُ**

**بِكُلِّ أَرْضٍ وَطِئْتُهَا أُمَمٌ ... تَرْعَى بِعَبْدٍ كَأَنَّهَا غَنَمُ؟**

تلك هي روح المتنبِّي صبيًّا، فما بالك به وقد بلا الأيام، وعرك السياسة، ودرى من أخبارها وأسرارها ما كان عنه مغيبًا؟ وتلك نغمة لذيذة جدًّا في أُذن ابن جنِّي، محبّبة إلى قلبه، يود لو سمعها كل ساعة في عصرٍ طغى فيه الأعاجم المستبدون القابضون على أزمَّة الحكم بمقابض من حديد.

**رابعًا:** حبُّ المتنبِّي اللغة العربية وتبحُّره في علومها، وفى يقيني أنَّه لولا انصراف المتنبِّي إلى قول الشعر والتغني بمآثره ومآثر ممدوحيه، لكان أحد أكبر علماء العربية في القرن الرابع

(1) المتنبي؛ محمود شاكر، ص222.
(2) ديوان المتنبي؛ ص84، 85.

الهجري، فقد عشق اللغة العربية منذ صغره واطَّلع على دقائقها وحفظ منها قدرًا صالحًا، ساعدته على ذلك ذاكرته الواعية، فقد روى الخطيب البغدادي عن أحد الورَّاقين قال: «ما رأيت أحفظ من هذا الفتى ابن عيدان قط، فقلت له: كيف؟ فقال: كان اليوم عندي، وقد أحضر رجل كتابًا من كتب الأصمعي... يكون نحو ثلاثين ورقة ليبيعه، قال: فأحدَّ ينظر فيه طويلًا، فقال له الرجل: يا هذا؛ أُريد بيعه وقد قطعتني عن ذلك، فإن كنتَ تريد حفظه من هذه المدة فبعيد، فقال له: إن كنتُ حفظته فما لي عليك؟ قال: أَهَبُ لك الكتاب، قال: فأخذت الدفتر من يده، فأقبل يتلوه عليَّ إلى آخره، ثم استلبه فجعله في كمّه وقام، فعلق به صاحبه وطالبه بالثمن، فقال: ما إلى ذلك سبيل قد وهبته لي، قال: فمنعناه منه، وقلنا له: أنت شرطت على نفسك هذا للغلام، فتركه».[1] فغلام في هذه السن يحفظ كتابًا للأصمعي في جلسةٍ واحدة يحمل في نفسه استعدادًا وموهبة عظيمة، ولا غرو فقد رُوى: «أن ابن العميد كان يُجلس المتنبِّي في دَسْتِه ويعقد بين يديه، فيقرأ عليه الجمهرة لابن دريد، لأنَّ المتنبِّي كان يحفظها عن ظَهر قلب».[2]

ولذا قال عنه ابن العديم: «وكان عارفًا باللغة، قيِّمًا فيها».[3]

كما استشهد ابن الشجري بشعره وقال: «وقال المتنبِّي وهو من العلماء بالعربية».[4]

ويؤكِّد ذلك ما قاله ابن خلكان عن المتنبِّي: «وكان من المكثرين من نقل اللغة والمطَّلعين على غريبها وحوشيَها، ولا يسأل عن شيء إلا واستشهد فيه بكلام العرب من النَّظم والنثر، حتى قيل: إنَّ الشيخ أبا عليّ الفارسي صاحب الإيضاح والتكملة قال له يومًا: كم لنا من الجموع على وزن فعلى؟ فقال المتنبِّي في الحال: حِجْلى وَظِربى، قال الشيخ أبو عليّ: فطالعت كتب اللغة ثلاث ليالٍ عَلِّي أن أجد لهذين الجمعين ثالثًا فلم أجده، وحسبك من يقول في حقه أبو عليّ هذه المقالة»[5].

---

(1) تاريخ بغداد: 4/ 103.
(2) بغية الطلب في تاريخ حلب: 2/ 639.
(3) بغية الطلب في تاريخ حلب: 2/ 659.
(4) أمالي ابن الشجري: 2/ 366.
(5) وفيات الأعيان: 1/ 120، 121.

obeikandl.com

فهذه الأخبار والأقوال وغيرها كثير تدل بما لا يدع مجالًا للشك على أنَّ المتنبِّي كان متبحرًا في علوم العربية، دارسًا لقواعدها نحوًا وصرفًا، حتى إنَّه كان يدلُّ بهذه المصطلحات في شعره كقوله:

إِذَا كَانَ مَا تَنْوِيهِ فِعْلًا مُضَارِعًا مَضَى قَبْلَ أَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ الجَوَازِمُ[1]

وقوله:

حَوْلِي بِكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمُ خِلَقٌ تُخْطِي إِذَا جِئْتَ في اسْتِفْهَامِهَا بِمَنِ[2]

وهي نغمة حبيبة جدًّا إلى نفس ابن جنِّي الذي أخلص نفسه لهذه العلوم، وكأنَّه وجد فيه عالمًا نحريرًا، علاوة على كونه شاعرًا مُلْهمًا ملأ الدنيا وشغل الناس.

لهذه الأسباب – في تقديري – أحبَّ كل منهما الآخر حبًّا جمًّا يقوم على الاحترام والتقدير، فالمتنبِّي يقول عن ابن جنِّي: «هذا الرجل لا يعرف قدره كثير من الناس»[3]. وكان دائمًا يحيل الإجابة عن مشكلات شعره على ابن جنِّي؛ ففي مسالك الأبصار «... وكان أبو الطيِّب المتنبِّي إذا سُئل عن معنى قاله، أو توجيه إعراب حصل فيه إغراب دلَّ عليه، وقال: «عليكم بالشيخ الأعور ابن جنِّي، فسلوه، فإنَّه يقول ما أردت وما لم أرد»[4]. وكان يقول: «ابن جنِّي أعرف بشعري منِّي».[5]

وابن جنِّي دائم الثناء على المتنبِّي؛ حيث يقول في مقدمة الفَسْر: «لقد شاهدته على خُلق قلَّما تكامل إلا لعالمٍ موفَّق، فأمَّا اختراعه للمعاني وتغلغله فيها، واستنقاؤه لها فما يدفعه إلا ضدٌّ، ولا يستحسن معاندته إلا ندٌّ، وما أحسبني رأيت أحدًا يتناكر فضل هذا الرجل ردحًا من الزمان إلا وشاهدته بعد ذلك قد رجع عنه وعاد إلى تفضيله، وإذا تأملت هذا من

(1) ديوان المتنبي؛ ص376، والتبيان: 3/ 282.
(2) ديوان المتنبي؛ ص155، والتبيان: 4/ 210.
(3) بغية الوعاة: 2/ 132.
(4) مقدمة الخصائص: 1/ 23 نقلاً عن مسالك الأبصار: 4/ 306.
(5) إشارة التعيين في تراجم النحويين؛ ص200.

أحوال هذه الطائفة وجدته كما ذكرت، وإنَّما ذلك لسُمُوِّ مطالعه، وحلو مقاطعه، وقوَّة مادته».[1]

وهي لهجة تنمُّ عن مشاعر التقدير لشاعر العربية الفذِّ، الذي لم يَنْسه صديقُه قط، بل ظلَّ يستشهد بشعره في المعاني، ويروي عنه الأخبار، ويسمِّيه شاعرنا، ولا يورد ذِكره إلا محفوظًا بإكليل من الثناء؛ كقوله: «حدَّثني المتنبِّي شاعرنا وما عرفته إلَّا صادقًا»[2].

وعلى الرغم من هذا الثناء المتبادل بين الرجلين فقد ظلت قضية صُحبة المتنبِّي مثار جدل محتدم بين المؤرِّخين قُدامى ومحدثين – وهنا نحاول عرض آراءهم ووضعها على ميزان النقد المنصف دون تحيز أو مجاملة:

*** هل التقى المتنبِّي بابن جنّي؟**

هذا العنوان مقالة نشرها الأستاذ عبد الغنيّ الملاح في مجلة «المورد» العراقية، أنكر فيها حصول لقاء أصلا بين الرجلين، ناهيك عن الصحبة الأكيدة التي تحدَّثنا عنها.

بدأ الكاتب مقالته بالتوهين من قيمة الرواية والطعن في الرواة، إذ جعل يتساءل حول «صحة الرواية بشكل مطلق بعدما مرَّت هذه الرواية بسلسلة من رواة واقعين تحت تأثير الرغبة الشخصية والغرض الرسميّ، وما يحيط بهما من تناقضات فكرية ومذهبية وسيطرة السلطان ونظرية الحق الإلهي في المُلك، بمفاهيم عصر الرواة أو صانعي الرواية... وإن ذلك قد أدَّى إلى انتشار الأساطير بين طيَّات كتب التراث، وازدحام أسماء الرواة وتنافسها في العطاء المتناقض للتأييد أو الرفض»... وانتهى من هذا التقديم إلى القول بأنَّه «ليس أمامه في ذلك إلا أحد أمرين: إما الأخذ بقُدسية الرواية؛ فيكون جزءًا من الانحراف الفكري الذي سببته قرون ما بعد الإسلام، وإمَّا أن يهشِّم قُدسيتها ويربط بين الانفعالات التي هيأت

(1) الفسر: 1/ 20، 21.
(2) الخصائص: 1/ 240.

ظروف الرواية وبين الموضوعية الإنسانية وعوامل تكوين الشخصية المستندة إلى السلوك ودوافعه».[1]

هذا سُمٌّ نفثه الناقد بين السطور، فليت شعري هل جاء القرآن وجاءت السُّنَّة إلا بالرواية؟ فإذا هشَّمنا قُدسية الرواية كان لكل دعيّ مختل العقل أن ينكرهما بحُجَّة أن الإيمان بالرواية جزء من الانحراف الفكري !!

إنَّ التراث العربيّ فيه روايات ضعيفة وموضوعة نعم، ولكنَّ التصدي لها لا يكون بهذه الصورة المنحرفة، وإنَّما يكون بنقدها نقدًا علميًّا يطال المتن والسند جميعًا، مع معرفة أحوال الرواة وما إلى ذلك، كما يصنع علماء الحديث - بارك الله فيهم - من خلال علمهم العبقري (علم الجرح والتعديل).

ثم إنَّ التحليلات النفسية وحقائق علم النفس التي يريد الملاح التائه أن يستند إليها ليست قواعد ثابتة، وإنَّما آراء شخصية تصدَّق طورًا وتكذَّب أطوارًا، ولا أجد في الرد على هذا المسلك البائر أصدق من قول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: «إنَّ هذا المذهب كفيلٌ أن يمزِّق جميع الحقائق والأحداث التي يحتضنها الزمن في هيكله القدسي القديم الماثل أمام الأجيال، بفعل سبحات من أخيلة التوسم وشهوة الذات، وعصبية النفس والهوى، وكم من حقيقة مُسخت، وأحداث نُكست، وأمجاد دُثرت، وبُرآء ظُلموا تحت سلطان هذه المحكمة الوهمية الجائرة».[2]

وبعد هذه المقدمة الملأى بالظنون يواصل الملامح مقالته قائلًا: «واستغل الرواة المُطارِدون للمتنبِّي شرح ديوانه من قِبَل عثمان بن جنِّي بعد موته فجعلوه تِرْبًا له ومعاصرًا، أو صاحبًا لَزِمَهُ دهرًا طويلًا في حِلِّه وترحاله، كما ذكر الثعالبي في «اليتيمة»، بينما تُشير كل المؤشرات الموضوعية التي تتعلق بالسلوك إلى فارق العمر بينهما، وإلى عدم التقائهما، وإلى اختلاف في

(1) هل التقى المتنبِّي بابن جنِّي؟ عبد الغنى الملاح - مجلة المورد، م 6، ع 3، سنة 1977م، ص141.
(2) فقه السيرة؛ د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص23.

مسيرة حياة كل منهما – ومِنْ هنا نبدأ التمحيص لنتوصل إلى خرافة كل ما قيل عن صداقة النحوي للشاعر ومصاحبته له».[1]

وحتى ينفي الملاح التائه هذه الخرافة أخذ يصادر كلَّ المرويَّات التراثية دون سند علمي، وإنَّما هي شهوة النفس المريضة التي يريد إشباعها لنفى اللقاء، فإذا قال المتنبِّي: صديقنا، أو الشيخ... أنكر ذلك وقال: إنَّ فارق السن بينهما يمنع تلك الصداقة.

وإذا تحدَّث الرواة عن وصول ابن جنِّي حلب سنة إحدى وأربعين يقول: ما المانع أن كون محرفًا عن رقم آخر كستةٍ وأربعين مثلًا؟

وإذا قال ابن جني: حدَّثني من شاهَد المتنبِّي، فكأنَّه ينكر مشاهدته الشخصية له، وإنَّما ينقل عن الآخرين الذين شاهدوه!!

وإذا لم يترحَّم ابن جنِّي على المتنبِّي في روايته عنه، كما ترحَّم على شيخه أبى عليّ الفارسيّ في «الخصائص»، فهذا دليل على أنَّ الخبر ليس من رواية ابن جنِّي، بل نقله عن آخرين لم يتعوَّدوا الترحُّم على الموتى!

وإذا اتَّهم ابن فُورَّجَة أبا الفتح بالكذب (وسوف نفنِّد ذلك في موضعه إن شاء الله)[2] صدق اتهامه واستفاد عدم حصول اللقاء.

وإذا رثى ابن جنِّي المتنبِّي دون أنْ يذكر ما يدل على علاقتهما الشخصيَّة؛ دلَّ ذلك على عدم حصول اللقاء، ثم عاد وأنكر المرثية أصلًا بدعوى حصول إقواء فيها، حيث أنَّها بائية مكسورة والبيت الثاني منها:

**سُلِبْتَ ثَوْبَ بَهَاءٍ كُنْتَ تَلْبَسُهُ كَمَا تُخُطِّفَ بِالخَطِّيَّةِ السَّلَبُ**[3]

---

(1) هل التقى المتنبي بابن جنِّي؟ – مقالة المورد السابقة – ص 142، وانظر كل ما سيأتي بها من ص141 إلى 149.

(2) انظر ما سيأتي بهذا البحث: ص180–187.

(3) البيت ضُبطت قافيته بالضم في معجم الأدباء: 3/ 463.

**أقول:** هذا سوء فهم منه، وقع فيه لأنَّه رآها مرفوعة في معجم الأدباء؛ فلم يعمل ذهنه في موقعها، والحقّ أنَّ الذي ضمها اعتبرها نائب فاعل، وأنا أقول: أنَّها مجرورة لأنَّها صفة للخطيّة؛ أي الرماح الخطيَّة التي تسلب أرواح الأعداء وغنائمهم، ونائب الفاعل والجار والمجرور أهو هو ضمير مستتر تقديره: هو يعود على ما يفهم من سياق الكلام من إرادة المسلوبات من غنائم وأرواح.

ولو سلَّمنا بوقوع إقواء، فهل كلُّ قصيدة بها إقواء تكون منحولة، وهي أكثر من تحصر؟

ثم خلُص الرجل إلى القول: بأنَّ كل ما قاله ابن جنِّي حول أحاديث المتنبِّي له ما هي إلا خيال ووهم مقال، ولا أخالنا بحاجة إلى أن نتهم ابن جنِّي بأنَّه أُصيب بمرض أحلام اليقظة في كبره، فأخذ يتوهم أحداثًا لم تقع، كما توهَّم الإسكندر المقدوني وهو يحاصر مدينة صور، فادَّعى أنَّه رأى هرقل الإله يُشير إليه من أسوار المدينة».

تلك أغرب طريقة لفهم المرويَّات، وأسهل طريقة لنفي كل رواية لا تروق صاحبنا إذا ما اعتكر مزاجه وهو يشرب من كأس الوهم على ضفاف الفرات، وأسهل طريقة كذلك لاتهام الثقات الصادقين بالكذب والاختلاق وزرع الأساطير وصنع الروايات، ومن العجيب أنَّه يقبل روايات الجرح ولا يقبل روايات التعديل، ويقدِّم السيئة على الحسنة، دون أن يستند إلى أساس علمي مقبول.

فإذا كان دكتور طه حسين قد شكَّ في مرويَّات الشعر الجاهلي، فإنَّه ذكر أسبابًا وأتى بشواهد تدعِّمه، ولكنْ ليست بالسعة التي يريدها... أمَّا الملاح التائه فإنه لا يشك بل يريد أن يهشِّم قدسية التراث وهو على كرسيه الوثير أو الكسير.

وأظنُّني لست في حاجة إلى الرَّدِّ على كل جملة قالها، فإنَّ مئة رواية، بل مئات الروايات لتقف صُلْبة أمام دعاوى المغرضين وأباطيل المشكِّكين الذين يستهينون بكتب التراث ومرويات الأقدمين.

*** هل التقيا بعد مغادرة حلب؟**

إذا كان ابن جنِّي قد رحل عن حلب عام 346 هجرية، وهو العام الذي رحل فيه المتنبِّي عن حاضرة بني حمدان، دون أن نجد خبرًا يُميز السابق من اللاحق، فإنَّ سؤالًا يلحّ علينا هو: هل التقيا بعد ذلك في بغداد أو شيراز؟

نحن نعلم أن ابن جنِّي بعد مغادرة حلب اصطحبه شيخه أبو عليّ الفارسي إلى بغداد، وظلا يتنقلان بين بغداد وشيراز، حتى اصطفيا بغداد مقامًا، فألقيا فيها عصا التسيار، والمتنبِّي بعد خروجه أو هروبه من مصر ممتطيًا جواد الليل، ملتحفًا رداء التخفِّي ذهب إلى العراق، وهناك ناظر الحاتمي في بغداد، ثم رحل عن بغداد إلى شيراز ليمدح عضد الدولة وابن العميد، فرحلة السفر تكاد تكون متقاربة؛ فهل جمعت الأيام بينهما بعد حلب؟

هنا نجد الدكتور محسن غياض يذهب إلى انقطاع العلائق بينهما بعد حلب؛ قائلًا: «وقد ذكر نفرٌ من القدماء والمحدثين: أنَّ أبا الفتح قرأ على أبى الطيِّب في حلب وشيراز، أما قراءته عليه في حلب وصحبته فيها، فقد قامت الشواهد عليها وثبتت صحتها، ولكنْ لا أطمئنُّ إلى ما زعموه من قراءته عليه بشيراز أو صُحبته له هناك، وأنا أعتقد أنَّ العلاقة بينهما انقطعت عند مغادرة المتنبِّي حلب إلى مصر ثم ذهابه من بعدها إلى العراق وبلاد العجم، ولي على ذلك أدلة منها:

1- سؤال أبي الفتح لعلى بن حمزة عن أخبار أبى الطيب وأشعاره، وكان هذا قد استضافه ببغداد وصحبه إلى بلاد فارس.

2- قول أبي الطيب وقد سُئل عن تفسير بيتٍ له بشيراز: لو كان صديقنا أبو الفتح حاضرًا لفسَّره.

3- قول عمر بن ثابت الثمانيني تلميذ ابن جنِّي وراوية هذا الكتاب: وهذه القصيدة من الفارسيات لم يقرأها شيخنا عليه - أي على المتنبِّي».

**وأقول:** إن بعض القدماء قد تشككوا في التقائهما بشيراز خلاف عمر بن ثابت الثمانينيّ، منهم: ابن فُورَّجة؛ الذي علَّق على تفسير ابن جنِّي قوله المتنبِّي:[1]

**بِعَضُدِ الدَّوْلَةِ امْتَنَعَتْ وَعَزَّتْ وَلَيْسَ لِغَيْرِ ذِي عَضُدٍ يَدَانِ**

**وَلا قَبْضٌ عَلَى البِيضِ المَوَاضِي وَلا حَظٌّ عَلَى السُّمْرِ اللِّدَانِ**

قائلًا: «على أن هذه القصيدة لم يقرأها على أبي الطيب، فما أظنه لقيه بعد خروجه إلى فارس»[2].

ومن بعد ابن فُورَّجَة تشكَّك: الزوزنيُّ؛ حيث يقول: «والشيخ أبو الفتح لم يسمع منه العميديَّات، وما بعدها؛ لأنَّه لم يلقه بعد خروجه من بغداد إلى فارس»[3].

**ثم أقول:** إنَّ قول الدكتور محسن غياض (إنَّ العلاقة بينهما قد انقطعت بعد مغادرة المتنبِّي حلب إلى مصر) قولٌ مجانب للصواب، فقد تظاهرت الأدلة التي تقطع بحدوث لقاءات كثيرة في بغداد، بل التقيا في شيراز كذلك، وإن كانت لقاءات عابرة لم يتمكن خلالها ابن جنِّي من قراءة العميديات عليه، من تلك الأدلة:

1- قال ابن جنِّي: حدَّثني أبو عليّ الحسين بن أحمد الفسويّ قال: خرجت بحلب أُريد دار سيف الدولة، فلما برزت من السور إذا أنا بفارسٍ متلثِّم قد أهوى نحوى برُمحٍ طويل وسدَّده إلى صدري، فكدت أطرح نفسى عن الدابة فحثر لثامه، فإذا المتنبِّي، وأنشد:

**نَثَرْتُ رُءُوسًا بِالأُحَيْدِبِ مِنْهُمُ كَمَا نُثِرَتْ فَوْقَ العَرُوسِ الدَّرَاهِمُ**

---

(1) الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي - مقدمة المحقق؛ ص14، وقول أبى الطيب (لو كان..) في الفتح الوهبي؛ ص182، وقول عمر الثمانينيّ - أيضًا - في الفتح الوهبي؛ ص81.

(2) الفتح على أبى الفتح؛ ص341، 342، ورواية (ولا حظّ على...) تفرَّد بها ابن فورجة، وفى الواحدي (ولا حظّ من السمر)؛ أي لا حظَّ له من الطعن بها، ويُروى بالطاء غير المعجمة وهو خفض الرماح للطعن [شرح الواحدي؛ ص770].

(3) شرح الزوزني على ديوان المتنبي: 2/ 141.

oberkandi.com

ثم قال: كيف هذا القول؛ أحسنٌ هو؟ فقلت: ويحك؛ قد قتلتني يا رجل. قال ابن جنِّي: فحكيت هذه الحكاية لأبى الطيِّب بمدينة السلام، فعرفها وضحك منها»[1]. فهو دليلٌ قاطع على حصول اللقاء بمدينة السلام؛ أي بغداد.

2- قال الربعي: كنت يومًا عند المتنبِّي بشيراز فقيل له: أبو عليّ الفارسي بالباب، وكانت تأكَّدت بينهما المودة، فقال: بادروا إليه فأنزلوه، فدخل أبو عليّ وأنا جالس عنده فقال: يا أبا الحسن؛ خذ هذا الجزء، وأعطاني جزءًا من كتاب التذكرة، وقال: اكتب عن الشيخ البيتين اللذين ذكَّرتك بهما وهما:

**سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالقَنَا وَمَشَايِخٍ كَأَنَّهُمُ مِنْ طُولِ مَا التَثَمُوا مُرْدُ**

**ثِقَالٌ إِذَا لاقَوْا خِفَافٌ إِذَا دَعَوْا كَثِيرٌ إِذَا شَدُّوا قَلِيلٌ إِذَا عُدُّوا**[2]

ومعلوم أنَّ ابن جنِّي كان ملازمًا أستاذه، فإذا كان الأستاذ القريب عهده بصحبة المتنبِّي - وقد كان من قبل مبغضًا له - قد لقيه وزاره في بيته، فما بالك بالصاحب الحميم الذي لازم أستاذه كلَّ الملازمة؟

3- قال ابن جنِّي في شرحه قول المتنبِّي:

**أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي وَأَنْثَنِي وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِى بِى**

قال: «هذا معنى حس بلفظ شريف، وحدَّثني المتنبِّي وقت القراءة قال: قال لي ابن حِنْزابة: يا أبا الطيِّب؛ أعلِمتَ أنِّي أحضرت كتبي وجماعة يطلبون مِنْ أين أخذت هذا المعنى فلم يظفروا بذلك، وقال المتنبِّي: وكان عنده من الكتاب الواحد خمسون نسخة، يريد تعظيم أمر كتبه».[3]

ووجه دلالة الخبر أنَّ حوار المتنبِّي مع ابن حِنْزابة كان بمصر، فمتى روى المتنبِّي لابن جنِّي ما حدث؟! مما يدل على حصول اللقاء في بغداد أو شيراز.

---

(1) يتيمة الدهر: 1/ 147، 148، الصبح المنبي؛ ص85، 86.
(2) بغية الطلب: 2/ 671، الصبح المنبي؛ ص162، 163.
(3) الفسر: 1/ 357، 358، يتيمة الدهر: 1/ 170.

4- قال ابن جنّي في شرح قول المتنبّي:

سَهِرْتُ بَعْدَ رَحِيلِي وَحْشَةً لَكُمُ ثُمَّ اسْتَمَرَّ مَرِيرِي وَارْعَوَى الوَسَنُ

«حدَّثني المتنبّي قال: حدَّثني بمصر فلان الهاشمي من أهل حرّان قال: أُحدثك بطريفة: كتبت إلى امرأتي وهي بحرّان كتابًا تمثَّلت فيه ببيتك:

بِمَ التَّعَلُّلُ؟ لا أَهْلٌ وَلا وَطَنٌ وَلا نَدِيمٌ وَلا كَأْسٌ وَلا سَكَنُ

فأجابتني عن الكتاب وقالت: ما أنت والله كما ذكرته في البيت، وما أنت إلا كما قال الشاعر في هذه القصيدة:

سَهِرْتُ بَعْدَ رَحِيلِي وَحْشَةً لَكُمُ ثُمَّ اسْتَمَرَّ مَرِيرِي وَارْعَوَى الوَسَنُ»[1]

وهذا الخبر في الفتح الوهبي الذي حقَّقه الدكتور الفاضل، ألم يسأل نفسه: إذا كان الهاشمي لقي المتنبّي بمصر، وحدَّثه بهذا الخبر؛ فأين حدث به المتنبّي ابن جنّي؟ أيكون ذلك في حلب أم بعد مغادرة حلب؟

5- قال أبو الفتح بن جنّي: «كنت قرأت ديوان المتنبّي عليه، فلما وصلت إلى قوله:

أُغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ وَالشَّوْقُ أَغْلَبُ وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الهَجْرِ وَالوَصْلُ أَعْجَبُ

فلما انتهيت إلى قوله:

لَحَا اللهُ ذِي الدُّنْيَا مُنَاخًا لِرَاكِبٍ فَكُلُّ بَعِيدِ الهَمِّ فِيهَا مُعَذَّبُ

(وذكر أربعة أبيات بعده) فقلت له: يعزُّ عليَّ أن يكون هذا الشعر في ممدوح غير سيف الدولة، فقال: حذَّرناه فما نفع فيه الحذر، ألست القائل فيه:

أَخَا الجُودِ أَعْطِ النَّاسَ مَا أَنْتَ مَالِكٌ وَلا تُعْطِيَنَّ النَّاسَ مَا أَنَا قَائِلُ

فهو الذي أعطاني لكافور بسوء تدبيره وقلة تمييزه».[2]

---

(1) الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي؛ ص176.

(2) بغية الطلب: 2/ 673، وفيات الأعيان: 1/ 122، شذرات الذهب: 3/ 15، الصبح المنبي؛ ص99، 100.

ومعلوم أنَّ القصيدة من الكافوريات، فمتى قرأها عليه، ودار بينهما هذا الحوار؟

وحول القصيدة نفسها خبرٌ آخر يحمل الدلالة نفسها؛ فقد قال أبو الفتح بن جنّي: «لما قرأت على أبى الطيب قوله في كافور:

**وَمَا طَرَبِي لَمَّا رَأَيْتُكَ بِدْعَةً لَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَرَاكَ فَأَطْرَبُ**

فقلت له: لم تزد على أن جعلته أبا زِنَّة... فضحك أبو الطيِّب».[1]

فهذه الأخبار وغيرها تدلُّ بما لا يدع مجالا للشكِّ على حصوله لقاءات عديدة في بغداد، وخلال هذه اللقاءات قرأ ابن جنّي الديوان على الشاعر.

ولا يعترض على ذلك بأنَّ ابن جنّي قد سأل عليّ بن حمزة عن أخبار أبى الطيِّب، لأنَّ ابن جنّي لم يلازم المتنبِّي كظلّه، على حين أقام المتنبِّي في دار عليّ بن حمزة، فلا شك أنَّه رأى منه أشياء، وسمع منه من الأخبار والأشعار وتفسير الشعر ما لم يسمعه ابن جنّي، ذلك الشغوف بالمتنبِّي شغفًا يجعله طامعًا دائمًا في المزيد من الأخبار والأسرار.

وإحالة المتنبِّي وهو بشيراز على ابن جنّي، وقول الثمانينيّ يؤكد ما ذهبنا إليه من أنَّ ابن جنّي لم يقرأ العميديات على المتنبِّي؛ وهي خمس قصائد فحسب، ولو توسَّعنا وقلنا: أنَّه لم يقرأ العضديات أيضًا، وهي ثماني قصائد، كان مجموع ما لم يقرأه على الشاعر ثلاث عشرة قصيدة فقط من ديوانه الضخم، وإن كان ذلك لا يمنع من حصول اللقاء؛ حيث كان مصاحبًا لأبى عليّ الفارسي الذي دخل على المتنبِّي مع عليّ بن عيسى الرّبعي.

وهذا الذي دلَّلْت عليه بما فيه بلاغ ومقنع يثلُّ ما قاله دكتور مندور: «لقى ابن جنّي المتنبِّي لأول مرة فيما يظهر بحلب، لقيه بتحفظ، ثم لم يلبث أن أُعجب به، ونعود فنرى ذكره في العراق بعد عودة الشاعر من مصر، فمنذ ذلك الحين لم يفارقه، لزمه في الكوفة ثم في بغداد، وعندما عاد المتنبِّي إلى الكوفة عاد معه، وأخيرًا لازمه في سفره إلى ابن العميد وعضد الدولة، والظاهر أنَّه كان معه ليلة قتله».[2]

---

(1) الصبح المنبي؛ ص117. وأبا زِنَّة: كنية القرد [لسان العرب (زنن) 3/ 1875].
(2) النقد المنهجي عند العرب؛ د. محمد مندور، ص232.

وهذا رأيٌ غريب حقًّا، لست أدري من أين جاء به؟ ولعله لما سمع عن ملازمة ابن جنِّي للمتنبِّي نسج من خياله هذه العبارات الخالية من التحقيق والتدقيق، بل إنَّها لا تثبت مطلقًا أمام ميزان النقد المحقق والتأمل المدقق كما تبين لنا.

*** آثار هذه الصُّحْبة:**

لم يكن اللقاء بين الرجلين مجرد لقاء عالمٍ بعالمٍ، بل كان مع ذلك لقاء محبّ بمحبٍّ، فقد شغف كل منهما الآخر حبًّا، تسلَّل في أعماق النفس، وظهر على مظاهر السلوك العملي لابن جنِّي في حديثه وفى كل كتبه؛ من ذلك:

1 – أنَّه أول من شرح ديوانه مضطلعًا بهذه المهمّة الشاقّة، مرتادًا تلك الطريق الوعرة، بل إنَّه ألَّف ثلاثة كتب تدور في فلك شعر المتنبِّي (وسوف تتجلى هذه المسألة عن الحديث عن هذا الشرح إن شاء الله)[1].

2 – أنَّه لم ينس أبا الطيب في جُلِّ كتبه، أدبية كانت أم لغوية، فهو دائمًا لَهِجٌ بذكره، دائم الثناء عليه، كثير الذِّكر لأخباره، لا يكف عن إقحامها حتى في أبعد كتبه عن الشعر، وأشدها خلوصًا لقضايا اللغة – وسوف ترد نماذج ذلك عند الحديث عن دراساته اللغوية.

3 – أنَّه لما بلغهم خبر مقتله رثاه بقصيدة حارة، ملؤها الحسرة والتفجّع والأنين والتوجع، فقد أفقدت به المنيةُ الآدابَ زهرة طالما فاحت، وفارسًا طالما خبر الأيام؛ يقول ابن جنِّي:[2]

**غَاضَ القَرِيضُ وَأَذْوَتْ نُضْرَةُ الأَدَبِ وَصَوَّحَتْ بَعْدَ رِيٍّ دَوْحَةُ الكُتُبِ**

---

(1) انظر ما سيأتي بهذا البحث: ص131.

(2) القصيدة في معجم الأدباء: 3/ 463، دمية القصر: 3/ 1482، الوافي بالوفيات: 6/ 342. أذوت: ذبلت، صوّحت: يبس نباتها، الخطّية: رماح تُنسب إلى بلدة بالبحرين، الجُلَّى: الأمر الخطير، انشعبت: اتفرَّقت، قلبًا جميعًا: ثابتًا شجاعًا، حلب أشطر الدهر: خبر الأيام وجرَّبها، تمطو: تسير، وانٍ: متمهِّل، وَصِب: تعب، أطراب: جمع طرب؛ ويطلق على الفرح والحزن، والمراد أحزان، لقًى: ملقًى؛ يُشير إلى قتله، النُّوب: جمع نائبة وهي المصيبة، خدن المساعي: صديق المكارم، خُوص: جمع خوصاء؛ وهي الغائرة العين الحديدة البصر، الأكوار: الرِّحال، الشُّعُب: جمع شعيب؛ وهي المزادة.

سُلِبْتَ ثَوْبَ بَهَاءٍ كُنْتَ تَلْبَسُهُ كَمَا تُخُطِّفَ بِالخَطِّيَّةِ السَّلَبِ
مَا زِلْتَ تَصْحَبُ في الجُلَّى إِذَا انْشَعَبَتْ قَلْبًا جَمِيعًا وَعَزْمًا غَيْرَ مُنْشَعِبِ
وَقَدْ حَلَبْتَ لَعَمْرِي الدَّهْرَ أَشْطُرَهُ تَمْضِي بِهِمَّةِ لا وَانٍ وَلا وَصِبِ

حتى يقول معربًا عن جبال الأسى الدفينة في أعماقه، وأمواج الأحزان التي ترغي وتُزْبِد بين جنبات قلبه:

بَاتَتْ وِسَادِيَ أَطْرَابٌ تُؤَرِّقُنِي لَمَّا غَدَوْتَ لِقًى في قَبْضَةِ النُّوَبِ
عُمِّرْتَ خِدْنَ المَسَاعِي غَيْرَ مُضْطَهَدٍ كَالنَّصْلِ لَمْ يَدَّنِسْ يَوْمًا وَلَمْ يُعَبِ
فَاذْهَبْ عَلَيْكَ سَلامُ المَجْدِ مَا قَلِقَتْ خُوصُ الرَّكَائِبِ بِالأَكْوَارِ وَالشُّعَبِ

وهي قصيدة عامرة بكل معاني الحسرة الموجعة على فقدان فارس الكلمة المغوار، وشاعر العربية العظيم.

4- أنَّه نجح في تقريب شعر أبي الطيب إلى قلب أستاذه أبي علي الفارسيّ الذي كان في أول الأمر مُبْغِضًا للمتنبي، ربما لم يحس فيه من الكِبْر والتعالي، فرآه لا يأبه للنحاة الجالسين بمجلس سيف الدولة؛ وكثير ما هم، وينظر إليهم نظرة مُزْوِرٍّ غير مكترث، ورآه يعزف مفاخره على قيثار النفج والاستطالة، ويدق طبول العنجهية المتعالية، التي يحاول العلماء البعد عنها ملتحفين رداء التواضع والخشية.

لكن التلميذ ليس على شاكلة أستاذه، إنَّه شارب من كأس المحبة حتى الثمالة، فأنَّى يلتقي الطرفان، وهنا ظل ابن جنّي يفْتِل لأستاذه في الذِّرْوَة والغارب، حتى ألان العصيَّ من قلبه، فبدَّل بالبغضاء محبة، وبالشنآن مودة، ودخل شِعر المتنبِّي قلب أبي عليّ الفارسي من أوسع الأبواب، وقد وردت في ذلك أخبار جيدة تدل على وفاء ابن جنّي للرجلين معًا.

ولعلَّ بداية المودة في ذلك الخبر: «فقد قال أبو عليّ يومًا: اذكروا لنا بيتًا من الشعر نبحث فيه، فبدأ ابن جنّي وأنشد:

حُلْتِ دُونَ المَزَارِ فَالْيَوْمَ لَوْ زُرْتِ (م) لَحَالَ النُّحُولُ دُونَ العِنَاقِ

فاستحسنه أبو عليّ واستعاده، وقال: لمن هذا البيت؟ فإنَّه غريب المعنى، فقال ابن جنِّي: للذي يقول:

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي وَأَنْثَنِي وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِى بِي

فقال: والله هذا حَسَنٌ بديع جدًّا، فلمن هما؟ قال: للذي يقول:

أَمْضَى إِرَادَتَهُ فَسَوْفَ لَهُ قَدٌ وَاسْتَقْرَبَ الأَقْصَى فَثَمَّ لَهُ هُنَا

فكثر إعجاب أبي عليّ، واستغرب معناه، وقال: لمن هذا؟ فقال ابن جنِّي: للذي يقول:

وَوَضْعُ النَّدَى في مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعُلا مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ في مَوْضِعِ النَّدَى

فقال: هو حَسَنٌ والله، وقد أطلت يا أبا الفتح؛ فأخبرنا مَنْ القائل؟

قال: هو الذي لا يزال الشيخ يستثقله، ويستقبح زيّه وفعله، وما علينا من القشور إذا استقام اللُّبُّ؟ قال أبو عليّ: أظنك تعنى المتنبِّي؟ قال: نعم، قال: والله حبَّبته إليَّ، ونهض ودخل على عضد الدولة فأطال في الثناء على أبي الطيِّب، ولما اجتاز به استنزله واستنشده، وكتب عنه أبياتًا من الشعر».[1]

فهذا الخبر المهمّ يدل على حصول لقاءات في شيراز مما يؤكد رأينا السابق، ويدق مسمارًا في نعش ما ذهب إليه دكتور محسن غياض، كما يدل على نجاح ابن جنِّي الباهر في محاولته الرائعة التوفيق بين أستاذه العظيم وصديقه الحميم.

وقد علَّق على هذا الخبر الدكتور عبد الفتاح شلبي قائلًا: «ومن المهم هنا أن أُشير إلى ما مَلَكه ابن جنِّي من لطف المدخل وحِس التأتّي، فقد عرض أبياتًا على الشيخ أبي عليّ قصد إليها عمدًا، لأنَّها من ذلك النوع الذي يتأثر به الفارسي، وينتزع منه إعجابه، فالأبيات في مجموعها تحتوى على مقابلات أحوال بأحوال في صورة منطقية عامة، فهي حالت دون

(1) بغية الطلب: 2/ 666، 667، الصبح المنبي، ص161، 162.

المزار، فشفَّه الوجد حتى حال نحوله دون العناق، وسواد الليل يشفع له زائرًا وبياض الصُّبح يغرى به منثنيًا، ثم هذا البيت المملوء بكلمات نحوية: سوف، قد، ثَمَّ، والإشارة الدالة على معانيها، واستغلال هذه المعاني في تصوير ما أراد الشاعر من المدح بمضاء الإرادة الهمة، وذلك منهج تفكير أبي عليّ النحوي المنطقي. وقد كان ابن جنِّي ماهرًا حين عرض هذه الأبيات لاسترضاء الشيخ دون سواها، وقد مكَّنته هذه الصحبة الطويلة لأبي عليّ في الحِلِّ والترحال - إلى ذكائه - من تفهم نفسية أبي علي، والغوص في أعماقها، والتعرف على خطراتها، فقدَّم إليه المتنبِّي وأنزله من نفسه بأبيات مليئة بالأدوات النحوية، قريبة من صنعة النحاة، وصنعة أبي عليّ بوجهٍ خاص، وكان لابن جنِّي مندوحة عن هذا الشعر المصنوع بشعر المتنبِّي المطبوع».[1]

والباحث على الرغم من تسليمه بصحة ما قاله الدكتور الفاضل من تفهم ابن جنِّي نفسية الشيخ، فإنَّه لا يوافق على اتهام هذه الأبيات بأنَّها مصنوعة وليست مطبوعة، فإنها من الروعة والعمق بحيث تصل أعماق النفس ومسارب الحس، وما اختارها ابن جنِّي لأنَّها قريبة من صنعة النحاة كما زعم، فإنه لو أراد لاختار مثل قوله:

**إِذَا كَانَ مَا تَنْوِيهِ فِعْلًا مُضَارِعًا مَضَى قَبْلَ أَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ الجَوَازِمُ**[2]

أو قوله:

**حَوْلِي بِكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمُ خِلَقٌ تُخْطِي إِذَا جِئْتَ فِي اسْتِفْهَامِهَا بِمَنِ**[3]

ولن يعجز ذلك ابن جنِّي الحافظ الرواية، كما أن في هذا القول وصْمًا لذوق أبي عليّ بأنَّه ذوق نحويّ صرف، والحق أنَّ الرجل كان يتمتع كذلك بذوق أدبيّ يطرب للجيد الرائع من المعاني، وفى هذا الخبر ما يدلُّ على ذلك: يقول ابن جنِّي: «ولقد ذاكرت به شيخنا أبا على

(1) أبو على الفارسي؛ د. عبد الفتاح شلبي، ص111.
(2) ديوان المتنبِّي، ص 376.
(3) ديوان المتنبِّي، ص155.

الحسن بن أحمد الفارسيّ بمدينة السلام ليلًا (وقد أخلينا) ولو لم يكن ذلك لم يصح فضله، وأنشدته من حفظي ميميته:

**وَاحَرَّ قلباه ممَّنْ قلبه شبم** .....

فجعل يستحسنها إلى قوله:

**وَشَرُّ مَا قَنَصَتْهُ رَاحَتِي قَنَصٌ شُهْبُ البُزَاةِ سَوَاءٌ فِيهِ وَالرَّخَمُ**

فلم يزل يستعيده منِّي إلى أن حفظه، وقال: ما رأيت رجلًا في معناه مثله، فلو لم يكن له إلاَّ قول أبي عليّ هذا فيه لكفاه».[1]

وهو بيت عارٍ من الصنعة النحوية كما هو واضح.

وهكذا خَبَرَ ابنُ جنِّي المتنبِّي، وَفَهِمَ شعره وروى أخباره، ونجح في إيصال شعره إلى نفس أستاذه ونفوس عشَّاق العربية أجمعين.

(1) الفسر: 1/ 25، 26، يتيمة الدهر: 1/ 148.

oberikandl.com

# سادسًا: شاعريَّته

على الرغم من تعدُّد اهتمامات ابن جنِّي، وتبحُّره في علوم اللغة متنًا وأصواتًا ونحوًا وصرفًا وتفسيرًا؛ فقد كان ذا عناية جادَّة بالشعر الذي هو ديوان العرب، هذه العناية لم تكن مجرد شغف به، وتفسير له واستئناس برائعة كلما عنَّت أمامه قضية ذوقية أو لغوية، وإنَّما تجلَّتْ في مظهر إبداعيّ راقٍ، ولا غرو فهو الذي قد أسلمت له اللغة أزمَّتها، وأسلست له قيادها، فإذا هي بين أنامله ليِّنة مطواعًا يصرفها كيفما يشاء، ومن ثَمَّ رأينا له شعرًا راقيًا يضعه في مصاف الشعراء المجيدين؛ يقول الباخرزي: «ليس لأحد من أئمة الأدب في فتح المقفلات وشرح المشكلات ما له، فقد وقع عليها من ثمرات الأعراب ولا سيما في علم الإعراب، وَمَنْ تأمل مصنفاته وقف على بعض صفاته، فوربّي إنَّه كشف الغطاء عن شعر المتنبِّي، وما كنت أعلم أنَّه ينظم القريض، أو يسيغ ذلك الجريض، حتى قرأت له مرثية في المتنبِّي وأولها:

**غَاضَ القَرِيضُ وَأَوْدَتْ نُضْرَةُ الأَدَبِ وَصَوَّحَتْ بَعْدَ رِيٍّ دَوْحَةُ الكُتُبِ»**[1]

وهي القصيدة الذائعة التي ألمحت إليها آنفًا.

ولابن جنِّي قصيدة أخرى طويلة أورد منها ياقوت بضعة وستين بيتًا، افتتحها ابن جنِّي بالحديث عن أدبه وحلاوته، ذلك الأدب الرائع الذي هو مفتخره الدائم؛ قائلًا:[2]

**وَحُلْوِ شَمَائِلِ الأَدَبِ مُنِيفِ مَرَاتِبِ الحَسَبِ**

**أَخِي فَخْرٍ مَفَاخِرُهُ عَقَائِلُ عُقْلَةِ الأَدَبِ**

ثم تطرَّق إلى معاناته في البحث، وسهره بين صرير الأقلام، وجريه وراء ثمرات الأفهام، حتى يدنو منه القصيُّ، ويدين له العصيُّ، ثم يسلق خصومه بلسانٍ حاد حتى يلزموا مكانهم، ويلجمهم الحُجَّة في أفواههم، وهي التي طالما قعقعت كالطبل عند نقده، قائلًا[3]:

---

(1) دمية القصر: 3/ 1481، وانظر التعليق على تحريف كلمة ثمرات الأعراب؛ ص 79.

(2) معجم الأدباء: 3/ 470. منيف: عال، عقائل: جمع عقيلة؛ وهي الفتاة الكريمة، عقلة: حبل يعقل به.

(3) معجم الأدباء: 3/ 471. مُساجلي: مَنْ يتحدَّاني، هافةِ لغب: ناقة ضعيفة، مبادهتي: مناظرتي في البديهة.

تَرَكْـــتُ مُـــسَاجِلِي أَدَبِـــي ... طُـــوَالَ الـــدَّهْرِ في تَعَـــبِ
إِذَا أَجْـــرَوْا إِلَـــى أَمَـــدٍ ... فَقُـــلْ في هَافَـــةٍ لَغِـــبِ
وَإِنْ رَامُـــوا مُبَـــادَهَتِي ... سَـــبَقْتُ وَأُوطِئُـــوا عَقِبِـــي
وَكَيْـــفَ يَـــرُومُ مَنْزِلَتِـــي ... نَزِيـــلُ خَبَائِـــثِ التُّـــرَبِ
وَهَـــلْ يَـــسْمُو لِقَـــارِعَتِي ... خَفِـيضُ الخَـدِّ ذُو حَـدَبِ
وَهَـــلْ يَنْتَـــاطُ بِـــي سَـــبَبًا ... ضَـــعِيفُ مَقَاعِـــدِ الـــسَّبَبِ

ثم حدثه تقواه إلى شكر مولاه الذي أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، من فهم رائع وصيت ذائع، حتى أصبح عَلَمًا يقوم علمه مقام النسب الأصيل والمحتد النبيل، بل يقوم له مقام الولد - على الرغم من أنَّ له ثلاثة من الأولاد الفضلاء: عليّ وعالٍ وعلاء -، حيث إنَّ كتبه تبقى بعد فناء جسده، ويبدو أنَّه قال هذه القصيدة في أواخر حياته، فرأيناه يعزف على وتر العودة إلى الله متذكِّرًا المثول القريب بين يديه؛ قائلًا[1]:

إِلَى اللهِ المَصِيرُ غَدًا ... وَعِنْـدَ اللهِ مُطَّلَبِـي
لَهُ ظَهْرِي وَمُعْتَمَلِـي ... وَمُتَّجَهِـي وَمُنْقَلَبِـي

ثم عاد إلى ذكر حسّاده الذين يبدو أنَّهم كانوا من تلاميذه، الذين صنعهم على عينه، ثم جازوه كما يجزى سِنِمّار، وقلبوا له ظهر المِجَنِّ بعدما استدّت سواعدهم - ثم ختم قصيدته بهذه الحكمة الرائعة[2]:

وَلَكِنَّ الـدَّوَاءَ عَلَـى ... كَرَاهَتِهِ شِفَا الوَصَبِ

وليس معنى ذلك أنَّ شعر ابن جنِّي قد انحصر في هذه الدائرة الضيقة من الرثاء والفخر ورد دعاوى الخصوم، فإن للرجل شعرًا يفيض رقةً وحنانًا؛ فيقول:[3]

(1) معجم الأدباء: 3/ 473.
(2) معجم الأدباء: 3/ 474. الوصب: الوجع والمرض.
(3) معجم الأدباء: 3/ 467.

تَحَبَّبْ أَوْ تَدَرَّعْ أَوْ تَقَبَّا فَلا وَاللهِ لا أَزْدَادُ حُبًّا
أَخَذْتَ بِبَعْضِ حُبِّكَ كُلَّ قَلْبِي فَإِنْ رُمْتَ المَزِيدَ فَهَاتِ قَلْبَا

فإذا أردنا الحكم على شعره، فإنَّه ينبغي أن نضع في اعتبارنا أنَّه ليس شاعرًا في المقام الأول، وإنَّما هو لغويٌّ يعالج الشعر، ولم تغلب عليه صناعته، ولذا أدرجه الباخرزي في باب عقده لقوم «ليس لهم في دواوين الشعراء رسم، ولا في قوانين الشعراء اسم».[1]

وقال عنه الثعالبي: «وكان الشعر أقلَّ خلاله، لعظم قدره وارتفاع حاله».[2]

ومع ذلك فإننا نجد جُلَّ النقاد أثنوا عليه كل الثناء، إذا راقهم شعره ولذَّ لهم قريضه، ولم يشذ إلا ابن ماكولا الذي قال: «كان نحويًّا مجردًا وله شعر بارد».[3]

وعز الدين بن الأثير المؤرخ يقول: «وله شعر بارد».[4]

وضياء الدين بن الأثير البلاغي يقول: «ومن يخفى عنه قُبح هذا الشعر، ولا يعلم أنَّه قد استهدف به للعائب والطاعن؟».[5]

وعلى كلٍّ فهؤلاء الثلاثة من المؤرخين لا من النقاد، بل إنَّ عادة ابن الأثير التهوين من شأن الآخرين، وإصدار الأحكام القاسية ضدهم لِمَا تمتلئ به نفوسهم من غرور وكبرياء.

يقول الدكتور أسعد طلس معلِّقًا على حكم عزِّ الدين بن الأثير المؤرخ: «ولا ندري على ماذا اعتمد ابن الأثير في حكمه الظالم هذا؟ وليس غريبًا أن يصدر ابن الأثير هذا الحكم القاسي على ابن جنِّي، فإنَّه معروف باستهانته بأقوال الناس، وباستخفافه بآثارهم وكتابه مملوء بأمثال هذا، محشوٌّ بالدعاوى الكثيرة والغرور».[6]

---

(1) دمية القصر: 3/ 1479.
(2) يتيمة الدهر: 1/ 137.
(3) الإكمال في رفع الارتياب: 2/ 585.
(4) الكامل في التاريخ: 9/ 179.
(5) الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدَّهَّان؛ ص17.
(6) أبو الفتح بن جنِّي – مجلة المجمع العلمي العربيّ بدمشق، م3، ج4، ص62.

obeikandl.com

أما الذين أثنوا عليه فكانوا من الكثرة بمكان[1] ، لكننا لا نؤمن بأوصافهم الطيبة كل الإيمان، ونحن نعلم كثيرًا من المترجمين اعتادوا وصف الشعراء والعلماء بأوصاف مسجوعة، ربما تتكرر مع الجميع، فابن جنّي لم يكن الشعر مجاله الأول، وإنَّما ضرب فيه بسهمٍ فأصاب، ولو أنَّه أخلص نفسه للشعر لكان واحدًا من خيرة الشعراء في القرن الرابع الهجري.

وفى تقديري أنَّ الذي هوّن من شأن شعره أمران:

– **أولهما:** إغرابه في شعره، فهو لغويّ يستظهر متن اللغة دون عُسر، وغريبها في ذهنه مأنوس، لطول اطِّلاعه عليه وائتناسه به، ثم هو مضروبٌ به المثل في التفاصح في تصانيفه، والذي يقرأ كتبه يدرك مدى قوة أسلوبه في كتابته، فما بالك بالشعر الذي تتوجه إليه العناية، والسعي نحو التنقيح؟

ولذا وجدناه في شعره يستعمل الغريب بكثرة، بحيث لا تسلم الكلمات مقادها إلا بعد طول بحث؛ يقول مثلًا في رثائه المتنبِّي:[2]

---

(1) انظر: وفيات الأعيان: 3/ 246، شذرات الذهب: 3/ 140، المنتظم: 7/ 220، تاريخ بغداد: 11/ 311، روضات الجنات؛ ص446.

(2) معجم الأدباء: 3/ 464، 465، دمية القصر: 3/ 1482 وما بعدها، الوافي بالوفيات: 6/ 342، 343. الهواجل: جمع هوجل؛ وهي الصحراء، التصدير: الحزام الأمامي للبعير، الحقب: الحزام الخلفي له، وكونها جائلة التصدير والحقب كناية عن ضمور بطنها وقوتها، قبّاء: ضامرة البطن، خَوْصاء: غائرة العينين، علالتها: أدنى سيرها، عريكتها: سنامها، الحلس: كساء يُوضع تحت الإكاف، القتب: الإكاف نفسه، الظبا: أطراف السيوف، توكافهن: ما ينزل منهن كالمطر، القنا: الرماح، الزغف: الدروع، اليلب: الترس، الجحافل: الجيوش، جاحم الحرب: شدة القتل في المعترك، الشَّهَب: البياض... وقد ضُبطت في معجم الأدباء بضمتين (الشُّهَب) وقال المحقق: يريد من بعد غياب الكواكب في البكور، ولا معنى لما قال، ولعلَّ الصواب ما ذكرت، فالمعنى: أنَّ تلك الخيول غذت وهي بيضاء شهباء، فلما خاضت غمار القتال عادت محمرّة السربال من كثرة تضرجها بالدم، المناهل: موارد المياه، القَرَب: الاقتراب من الماء بحيث يكون بين الطالب وبين الماء يوم واحد، القساطل: جمع قسطل؛ وهو غبار المعركة، الحزون: الأرض الصُّلبة، تعتم الحزون بها: أي يعلوها كالعمامة، الضَّغْم: العضّ، الحَرِب: الغاضب، تمايس: تبختر، أبراد القُشُب: ثيابها الجديدة.

مَـنْ لِلْهَوَاجِـلِ يُحْيِـى مَيْـتَ أَرْسُـمِهَا ... بِكُـلِّ جَائِلَـةِ التَّـصْدِيرِ وَالحَقَـبِ؟
قَبَّـاءُ خَوْصَـاءُ مَحْمُـودٌ عُلالَتُهَـا ... تَنْبُـو عَرِيكَتُهَـا بِـالحِلْسِ وَالقَتَـبِ؟
أَمْ مَـنْ لِبِـيضِ الظُّبَـا تَوْكَـافُهُنَّ دَمٌ ... أَمْ مَـنْ لِـسُمْرِ القَنَـا وَالزَّغْـفِ وَاليَلَـبِ؟
أَمْ لِلْجَحَافِـلِ يُـذْكِي جَمْـرَ جَاحِمِهَـا ... حَتَّـى يُقَرِّبَهَـا مِـنْ جَـاحِمِ اللَّهَـبِ؟
أَمْ لِلْمَحَافِـلِ إِذْ تَبْـدُو لِتَعْمُرَهَـا ... بِـالنَّظْمِ وَالنَّثْـرِ وَالأَمْثَـالِ وَالخُطَـبِ؟
أَمْ لِلـصَّوَاهِلِ مُحْمَـرًّا سَـرَابِلُهَا ... مِـنْ بَعْـدِ مَـا غَرَبَـتْ مَعْرُفَـةَ الـشَّهَبِ؟
أَمْ لِلْمَنَاهِـلِ وَالظَّلْمَـاءُ عَاكِفَـةٌ ... يُوَاصِـلُ الكَـرَّ بَـيْنَ الـوِرْدِ وَالقَـرَبِ؟
أَمْ لِلْقَـسَاطِلِ تَعْـتَمُّ الحُـزُونُ بِهَـا ... أَمْ مَـنْ لِـضَغْمِ الهِزَبْـزِ الـضَّيْغَمِ الحَـرِبِ؟
أَمْ لِلْمُلُـوكِ يُحَلِّيهَـا وَيُلْبِـسُهَا ... حَتَّـى تَمَـايَسَ فِي أَبْرَادِهَـا القُـشُبِ؟

وهى أبيات كما نرى ملأى بالغريب، تلك الغرابة التي من شأنها أن تضع حُجبًا لغويةً بين الشاعر والمتلقي، وافتضاض تلك الحُجب لا يعود بكبير فائدة على المتلقي شأن الحُجب الفنية التي توصل إلى الدرِّ الثمين بعد كشف المخبوء الدفين، بحيث توازى الثمرة التعب الذي بُذل من أجل الحصول عليها، فيكون المرءُ أحرص عليها وأشغف بها، أمَّا تلك الأستار الكثيفة من غريب اللغة فإنَّها تعيب الشعر - يقول أبو هلال العسكري: «والشعر كلام منسوج، ولفظ منظوم، وأحسنه ما تلاءم نسجه ولم يسخف، وحسُن لفظه ولم يهجن، ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام فيكون جلفًا بغيضًا... وقد غلب الجهل على قومٍ فصاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكدّ، ويستفصحونه إذا وجدوا ألفاظه كَزَّةً غليظةً، وجاسيةً غريبةً، ويستحقرون الكلام إذا رأوه سلسًا عذابًا، وسهلًا حلوًا؛ ولم يعلموا أنَّ السهل أمنع جانبًا، وأحسن موقعًا، وأعذب مستمعًا... (ثم يروى بسنده) قيل للسيد: ألا تستعمل الغريب في شعرك؟ فقال: ذاك عِيٌّ في زماني، وتكلُّف منِّى لو قلته، وقد رُزقت طبعًا واتساعًا في الكلام، فأنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير ولا يحتاج إلى تفسير».[1]

(1) الصناعتين؛ ص 66، 67.

إنَّها دعوة لأن يتشح الشعر بوشاح من الدماثة والرِّقة، بحيث يصل السامع إلى ما يريد الشاعر من أقصر طريق، فإن أبَى الشاعر إلَّا المراوغة فلتكن مراوغة فنية تحرك العقل طلبًا للمعنى المكنون لا تحرك اليد طلبًا للقاموس، ولكنَّ النزعة اللغويَّة غلبت بغلاظتها على صاحبنا، فقلَّ مقدار شعره.

– **ثانيهما:** النزعة العقليَّة التي تُجَلِّل كثيرًا من شعره، فتراه يقوم على التعليل والتفسير والتقابل واصطناع النِّسب العقليَّة التي تخاطب العقل قبل مخاطبة الوجدان، والشعر في المقام الأول تخييل وتصوير، يطير بالشاعر والقارئ معًا في عالم الخيال، ويطوف بهما في آفاق الممكن والمحال، وليس تلك القِسَم العقلية الجامدة، ورحم الله القاضي الجرجاني وهو يقول: «والشعر لا يحبَّبُ إلى النفوس بالنظر والمحاجَّة، ولا يُحَلَّى في الصدور بالجدال والمقايسة، وإنَّما يعطفها عليه القبول والطلاوة، ويقربه منها الرونق والحلاوة، وقد يكون الشيء متقنًا محكمًا ولا يكون حلوًا مقبولًا، ويكون جيدًا وثيقًا وإن لم يكن لطيفًا رشيقًا».[1]

وقد وقع ابن جنِّي فريسة لمثل هذه الأقيسة والمجادلات العقلية؛ كقوله في غزله:[2]

**غَـزَالٌ غَيْـرُ وَحْشِـــيٍّ حَكَى الوَحْشِيُّ مُقْلَتَـهُ**

**رَآهُ الوَرْدُ يَجْنِي الوَرْدَ (م) فَـاسْتَكْسَـاهُ حُلَّتَـــهُ**

**وَشَمَّ بِأَنْفِـهِ الرَّيْحَانَ (م) فَـاسْتَهْـدَاهُ زَهْـرَتَـهُ**

**وَذَاقَتْ رِيحَهُ الصَّهْبَاءُ (م) فَـاخْتَلَسَتْـهُ نَكْهَتَـهُ**

فالقارئ يحسّ أنَّ كل بيت مكوَّن من أمرين، ثانيهما مرتَّب على الأول ترتيبًا عقليًّا يُشبه إلى حدٍّ بعيد تلك الأقيسة المنطقيَّة والتعليلات النحويَّة، ولا شك أنَّها تسربت إلى شعر ابن جنِّي بسبب غلبة النحو واللغة عليه، والشعر ينبغي أن يبتعد قليلا أو كثيرًا عن مثل هذا المجادلات العلمية؛ ولذا ردَّ أصحاب البُحْتري على أصحاب أبي تمَّام بأنَّ «الشعر ليس علته العلم، ولو

(1) الوساطة؛ ص 100.

(2) معجم الأدباء: 3/ 466.

كان علته العلم لكان من يتعاطاه من العلماء أشعر ممن ليس بعالم».[1]

ومهما يكن من أمر شعره فالذي لا يختلف عليه هو أنَّ للرجل نصيبًا من الشاعرية قلَّ أو كثُر، وذلك بدوره ينعكس على النقد.

نعم؛ إنَّهما مَلَكَتَان منفصلتان؛ حيث يقول أبو أحمد العسكري: «يقول الشعر الجيِّد مَنْ ليس له المعرفة بنقده، وقد يميزه من لا يقوله، وقد قيل لابن المقفَّع: لِمَ لا تقول الشعر مع علمك به؟ فقال: أنا كالمِسَنِّ أشحذ ولا أقطع».[2]

ولكنَّ الذي لا شك فيه أنَّ معالجة قرض الشعر تمنح الناقد مفاتيح المعاني، وتضع يده على الطريق المؤدي إليها، لأنَّه سبر مداخل المعاني ومخارجها ممارسة ومدارسة، بل إنَّ النقد نشأ أول الأمر في أحضان الشعراء – يقول المرحوم طه إبراهيم: «إنَّ هذا الشعر مرّ بضروب كثيرة من التهذيب حتى بلغ ذلك الإتقان الذي نجده عليه في أواخر العصر الجاهلي، فبين الحُدَاء الذي يظن أنَّه نواة للشعر العربيّ وبين القصيدة المحكمة عصرٌ طويل للنقد الأدبيّ، ألحَّ على الشعر بالإصلاح والتهذيب حتى انتهى به إلى الصحة وإلى الجودة والإحكام، فلم يكن طفرةً أنْ يهتدي العربيّ لوحدة الرويّ في القصيدة، ولا لوحدة حركة الرويّ، ولا للتصريع في أولها، ولا لافتتاحها بالنسيب والوقوف على الأطلال، لم يكن طفرة أن يعرف العرب كل تلك الأصول الشعريَّة في القصيدة، وكل تلك المواصفات في ابتداءاته مثلاً، وإنَّما عرف ذلك كله بعد تجارب، وبعد إصلاح وتهذيب، وهذا التهذيب هو النقد الأدبيّ»[3].

فهذا التنقيح أو التحكيك أو التنخُّل إنْ هو إلا نقد خالص، مما يدل على أنَّ الشاعر ناقد بفطرته، وعلى أنَّ ممارسة الشعر تحلُّ كثيرًا من شفرات النص، وتسهِّل طريق الوصول الفاهم إلى ما في بطن الشاعر، وتجعل الحكم أقرب إلى الموضوعيَّة والإنصاف.

---

(1) الموازنة؛ للآمدي: 1/ 25.
(2) المصون في الأدب، ص5، 6.
(3) تاريخ النقد الأدبيّ عند العرب، ص11.